المُغني في التَّفسِير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحرّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سورةُ الرُّومِ، سورةُ لُقمانَ، سُورةُ السَّجْدةِ

(المجلدُ الرَّابعُ والعشرونَ)

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتْرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الرُّومِ

سُورةُ الرُّوم

سورةُ الرُّومِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (الرُّومِ):[1]

فعن أبي رَوحٍ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّه صلَّى مع النَّبيِّ - ﷺ - الصُّبحَ فقرَأ بالرُّومِ، فترَدَّد في آيةٍ، فلمَّا انصرَف قال: إنَّه يَلْبِسُ علينا القرآنَ أنَّ أقوامًا منكم يُصَلُّون معنا لا يُحْسِنونَ الوُضوءَ، فمَن شَهِد الصَّلاةَ معنا فلْيُحْسِنِ الوُضوءَ)).[2]

---

(1) سُمِّيت سورةَ الرُّومِ؛ لِما فيها مِن ذِكرِ غَلَبةِ الرُّومِ.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/365).

(2) أخرجه أحمد (15874) واللَّفظُ له، وابنُ أبي شَيْبَةَ في ((المصنف)) (34). حَسَّنه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (222)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (25/211). وقال المُنْذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (1/138): رجاله محتجٌّ بهم في الصَّحيح. وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (1/246): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ. وبنحوه أخرجه النَّسائيُّ (947)، وأحمد (15873) من حديثِ شَبِيبٍ أبي رَوْحٍ، عن رجُلٍ من أصحاب النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. حسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (947)، وحسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((التفسير)) (6/329)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (25/209).

سورةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ،[3] ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرين.[4]

مِن أبرزِ مقاصِدِ سورةِ الرُّومِ:

1- بَسْطُ دَلائلِ وحدانيَّةِ اللهِ، وإبطالُ الشِّرك.

2- تقريرُ البَعثِ والجزاءِ في الآخرةِ.

مِن أبرزِ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتْها سورةُ الرُّومِ:

1- الإخبارُ عن حربِ الرُّومِ والفُرسِ وانتهائها بانتصارِ الفُرسِ، والوَعدُ بأنَّ الرُّومَ سيَنتصرونَ بعدَ ذلك عليهم.

2- حثُّ الكُفَّارِ على التَّفكُّرِ فيما خلَقَ اللهُ مِن السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، والسَّيرِ في الأرضِ؛ لِيَنظُروا كيف كان مَصيرُ الأُمَمِ قَبْلَهم، وتوعُّدُهم بسوءِ المصيرِ.

3- ذِكرُ قَضيَّةِ الخَلقِ والإعادةِ، وأنَّها للهِ وحْدَه، وإليه يُرجَعُ جميعُ المخلوقاتِ.

4- بيانُ بَعضِ ما يجري يومَ القيامةِ، ومصيرِ المؤمنينَ والكُفَّارِ.

---

(3) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا قولَه تعالى: فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ [الروم: 17]؛ فمَدَنيَّةٌ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/446)، ((تفسير الزمخشري)) (3/466).

(4) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/380)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/415)، ((تفسير القرطبي)) (14/1)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/365)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (2/348).

5- تَعدادُ بَعضِ آياتِ اللهِ العَظيمةِ الَّتي تدُلُّ على وَحدانيَّتِه تعالى.

6- الحَثُّ على التَّمَسُّكِ بالدِّينِ الحقِّ واتِّباعِه، والنَّهيُ عن اتِّباعِ طَريقِ المُشرِكين.

7- الإخبارُ عن أحوالِ النَّاسِ في السَّـــرَّاءِ والضَّـــرَّاءِ، والدَّعوةُ إلى التَّعاطُفِ والتَّراحمِ، والتَّحذيرُ مِنَ الرِّبا.

8- الإخبارُ بأنَّ اللهَ تعالى هو مَن يَخلُقُ ويَرزُقُ، ويُحيي ويُميتُ، وأنَّ ما يتَّخِذُه المُشـرِكونَ مِن شُـرَكاءَ لا يَملِكونَ مِن ذلك شَيئًا.

9- الإخبارُ عن ظُهورِ الفَسادِ في البَرِّ والبَحرِ، وتوضيحُ أنَّ سَبَبَ ذلك هو ما كَسَبْته أيدي النَّاسِ.

10- تَسـليةُ النَّبيِّ صـلَّى اللهُ عليه وسـلَّم بسَـبَبِ تكذيبِ قَومِه، بأنَّ هذا هو حالُ الأنبياءِ، وأنَّ اللهَ انتقَمَ اللهُ مِنَ الَّذين أجرَموا، وتكفَّل بنَصرِ المؤمِنينَ.

11- بيانُ أطوارِ حياةِ الإنسانِ الرَّئيسةِ، وذِكرُ بعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ.

12- الإخبارُ عن تعنُّتِ الكفَّارِ، وأمْرُ اللهِ تعالى نبيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ والثَّباتِ.

سورةُ الرُّومِ

الآيات (1–7)

الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ
لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ
ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7)

تَفسيرُ الآياتِ:

الم (1).

هذه الحروفُ المقطَّعةُ الَّتي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها.

غُلِبَتِ الرُّومُ (2).

أي: غَلَب أهلُ فارسَ المُشرِكونَ، الرُّومَ أهلَ الكِتابِ، وقَهَروهم.[5]

فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3).

---

(5) قال ابن كثير: (نزلَتْ هذه الآياتُ حينَ غلَب سابورُ ملكُ الفُرسِ على بلادِ الشَّامِ وما والاها مِن بلادِ الجزيرةِ وأقاصي بلادِ الرُّومِ، واضطرَّ هِرَقلَ ملكَ الرُّومِ حتَّى ألجأه إلى القُسْطَنطينيَّةِ، وحاصَره فيها مدَّةً طويلةً، ثمَّ عادَتِ الدَّولةُ لهِرَقْلَ).

((تفسير ابن كثير)) (297/6).

وقال القاسمي: (اتَّفق المؤرِّخون مِنَ المسلمينَ وأهلِ الكتابِ على أنَّ مَلِكَ فارسَ كان غزا بلادَ الشَّامِ، وفتَحَ دِمَشْقَ وبيتَ المَقْدِسِ: الأُولى سنة 613، والثَّانية سنة 614.

أي: قبْلَ الهجرةِ النَّبويَّةِ بسَبْعِ سِنينَ).

((تفسير القاسمي)) (4/8).

فِي أَدْنَى الْأَرْضِ.

أي: انتصَر الفُرسُ على الرُّومِ في أدنى الأرضِ.(6)

وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ.

---

(6) قيل: المرادُ بقولِه تعالى: فِي أَدْنَى الْأَرْضِ: في أقرَبِ أرضِ الرُّومِ إلى بلادِ العربِ.

وممَّن قال بهذا القول: البِقاعي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (3/15)، ((تفسير ابن عاشور)) (43/21).

وقال البيضاوي: (فِي أَدْنَى الْأَرْضِ أرضِ العرَبِ منهم؛ لأنَّها الأرضُ المعهودةُ عندَهم، أو في أدنى أرضِهم مِن العربِ، واللَّامُ بدَلٌ مِن الإضافةِ).

((تفسير البيضاوي)) (201/4).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (246/4، 247).

وقيل: المعنى: أقرَبُ أرضِ الشَّامِ إلى بلادِ فارسَ.

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والبغوي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (458/18، 460)، ((تفسير الثعلبي)) (294/7)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5652/9)، ((تفسير البغوي)) (570/3).

وقال الألوسي: (المرادُ بالأرضِ أرضُ الرُّومِ على أنَّ «أل» نائبةٌ مَنابَ الضَّميرِ المُضافِ إليه، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّ الكلامَ معهم.

أو المرادُ بها أرضُ مكَّةَ ونواحيها؛ لأنَّها الأرضُ المعهودةُ عندَهم، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى الرُّومِ.

أو المرادُ بالأرضِ أرضُ الرُّومِ؛ لذِكْرِهم، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى عدُوِّهم -أعني: فارسَ- لحديثِ المَغلوبيَّةِ.

وقد جاء مِن طرُقٍ عديدةٍ أنَّ الحربَ وقعتْ بيْنَ أَذْرِعاتَ وبُصْرَى.

وقال ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّيُّ: بالأُرْدُنِّ وفِلَسْطِينَ.

وقال مجاهدٌ: بالجزيرةِ، يعني: الجزيرةَ العُمَريةَ، لا جزيرةَ العربِ).

((تفسير الألوسي)) (19/11).

أي: والرُّومُ مِن بعدِ أن غلَبَهم أهلُ فارسَ سيَغلِبونَهم.[7]

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4).

فِي بِضْعِ سِنِينَ.

أي: سيقَعُ انتِصارُ الرُّومِ على الفُرسِ فيما بيْنَ ثلاثِ سِنينَ إلى تِسعٍ.[8]

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في قَولِ الله تعالى: الم * غُلِبَتِ الرُّومُ، قال: ((غُلِبَت وغَلَبت؛ كان المُشرِكون يُحِبُّون أن يظهَرَ أهلُ فارسَ على الرُّومِ؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهلُ أوثانٍ، وكان المُسلِمونَ يُحِبُّون أن يظهَرَ الرُّومُ على فارسَ؛ لأنَّهم أهلُ كتابٍ، فذَكَروه لأبي بكرٍ، فذكره أبو بكرٍ لِرَسولِ الله - ﷺ -، قال: أمَا إنَّهم سيَغْلِبونَ، فذكره أبو بكرٍ لهم، فقالوا: اجعَلْ بيْننا وبيْنَك أجَلًا؛ فإنْ ظهَرْنا كان لنا كذا

---

(7) قوله: وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ غَلَب مصدرٌ، يقال: غَلَبْتُه غَلْبًا وغَلَبَةً وغَلَبًا، وهي مِن بابِ إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ، أي: غلبةِ غيرِهم عليهم، وإنَّما أضاف الغلبةَ إليهم؛ لاتصالِها بهم، واتصالُ الغلبةِ بهم وُقوعُها عليهم، والمعنى: وهم من بعدِ غلبِ فارسَ إيَّاهم سيغلبون فارسَ.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (4/195)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: 611)، ((تفسير الرسعني)) (5/6).

(8) قال الواحدي: (أجمَع المفسِّرونَ أنَّ الرُّومَ غَلَبت فارسَ بعدَما أخبرَ اللهُ بهذه الآيةِ أنَّهم سيَغلِبونَ، في السَّنةِ السَّابعةِ).

((البسيط)) (18/12).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (21/40، 45).

وقال ابنُ عاشور: (اتَّفقت الرِّواياتُ على أنَّ غَلَبَ الرُّومِ للفُرسِ وقَع بعدَ مُضيِّ سَبْعِ سِنينَ مِن غَلَبِ الفُرسِ على الرُّومِ، الَّذي نزلتْ عندَه هذه السُّورةُ).

((تفسير ابن عاشور)) (21/40).

ونسَبه الثعلبيُّ إلى قولِ أكثرِ المفسِّرينَ.

ينظر: ((تفسير الثعلبي)) (7/292).

وكذا، وإنْ ظهَرْتُم كان لكم كذا وكذا، فجعَل أجَلًا خمس سِنينَ، فلمْ يَظهَروا، فذكَر ذلك للنبيّ – ﷺ –، قال: ألَا جعلْتَه إلى دُون –قال: أُراه العَشر– قال الرَّاوي: والبِضعُ ما دونَ العَشرِ– قال: ثمَّ ظهَرَت الرُّومُ بعدُ. قال: فذلك قَولُه تعالى: الم * غُلِبَتِ الرُّومُ إلى قَولِه: يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ [الروم: 4، 5]))(9).

وعن نِيَارِ بنِ مُكْرَمٍ الأسلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (لَمَّا نزلت: الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ [الروم: 1 – 3]، فكانت فارسُ يومَ نزلت هذه الآيةُ قاهرينَ للرُّومِ، وكان المُسلِمونَ يُحِبُّون ظُهورَ الرُّومِ عليهم؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهلُ كتابٍ، وفي ذلك قولُ الله تعالى: وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [الروم: 4 – 5] ، فكانت قُرَيشٌ تُحِبُّ ظُهورَ فارسَ؛ لأنَّهم وإيَّاهم ليسوا بأهلِ كتابٍ، ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلمَّا أنزَل اللهُ تعالى هذه الآيةَ خرَج أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ يَصيحُ في نواحي مكَّةَ: الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ [الروم: 1 – 4] ، قال ناسٌ مِن قُرَيشٍ لأبي بكرٍ: فذلك بيْنَنا وبيْنَكم، زَعَم صاحِبُك أنَّ الرُّومَ ستَغلِبُ فارِسَ في بِضعِ سِنينَ، أفلا نُراهِنُك على ذلك؟ قال: بلى –وذلك قبْلَ تحريمِ الرِّهانِ–

(9) أخرجه الترمذي (3193)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11389)، وأحمد (2495).

قال التِّرمذيُّ: حسَنٌ صحيحٌ غريب.

وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (3193)، وقال ابن القيم في ((الفروسية)) (ص: 92، 207): إسنادُه على شرطِ الصَّحيحِ.

وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (168/4).

فارَهَن أبو بكرٍ والمُشرِكونَ وتَواضَعوا الرِّهانَ، وقالوا لأبي بكرٍ: كم تجعَلُ؟ البِضعُ ثلاثُ سِنينَ إلى تسعِ سِنينَ، فسَمِّ بيْننا وبيْنك وسَطًا تنتهي إليه، قال: فسَمَّوا بيْنَهم سِتَّ سِنينَ، قال: فمَضَتِ السِّتُّ سِنينَ قبْلَ أن يَظهَروا، فأخَذ المُشرِكون رَهنَ أبي بكرٍ، فلمَّا دخلَتِ السَّنةُ السَّابِعةُ ظَهَرت الرُّومُ على فارِسَ، فعاب المُسلِمونَ على أبي بكرٍ تَسمية سِتِّ سِنينَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾، قال: وأسلَمَ عندَ ذلك ناسٌ كثيرٌ)[10].

(10) أخرجه الترمذي (3194) واللفظ له، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (442/7).

قال الترمذي: صحيحٌ حسَنٌ غريبٌ.

وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (3194).

وقال ابن القيم: (قولُه: «وذلك قبل تحريمِ الرِّهانِ» مِن كلام بعضِ الرُّواةِ؛ ليس مِن كلامِ أبي بكرٍ، ولا مِن كلامِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ).

((الفروسية)) (ص: 95).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذه المُراهَنةُ هي مِثلُ المراهَنةِ في سِباقِ الخَيلِ، والرَّمي بالنُّشَّابِ، وكانت جائزةً؛ لأنَّها مَصلحةٌ للإسلامِ؛ لأنَّ فيها مَصلحةَ بيانِ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما أخبَرَ به مِن أنَّ الرُّومَ سيَغلِبونَ بعدَ ذلك، وفيها ظُهورُ أقرَبِ الطَّائِفتَينِ إلى المسلِمينَ على أبعَدِهما، وهذا فَعَله الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، وأقَرَّه عليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يُنكِرْه عليه، ولا قال: هذا مَيسِرٌ وقِمارٌ، والصِّدِّيقُ أجَلُّ قَدْرًا مِن أن يقامِرَ؛ فإنَّه لم يَشرَبِ الخَمرَ في جاهليَّةٍ ولا إسلامٍ، وهي أشهى إلى النُّفوسِ مِن القِمارِ! وقد ظَنَّ بَعضُهم أنَّ هذا قِمارٌ، لكِنَّ فِعْلَه هذا كان قبْلَ تحريمِ القِمارِ، وهذا إنَّما يُقبَلُ إذا ثبت أنَّ مِثلَ هذا ثابِتٌ فيما حَرَّمه اللهُ مِن المَيسِرِ، وليس عليه دليلٌ شرعيٌّ أصلًا، بل هي مجرَّدُ أقوالٍ لا دليلَ عليها، وأقْيِسةٌ فاسِدةٌ يَظهَرُ تناقُضُها لِمَن كان خبيرًا بالشَّرعِ).

((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (69/4).

وقال ابن القيم: (وَقد اختلف أهلُ العلمِ في إحكامِ هذا الحديثِ ونسخِه على قولَيْن: فادَّعت طَائِفَةٌ نسخَه بنهيِ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الغرَرِ والقمارِ...

وإلى هذا القولِ ذهَب أصحابُ مالكٍ وَالشَّافعيُّ وأحمدُ.

وَادعت طائِفَةٌ أنَّه مُحكمٌ غيرُ منسوخٍ وأنَّه ليس مع مدَّعي نسخِه حجَّةٌ يتعَيَّنُ المصيرُ إليها...

وإلى هذا ذهب أصحابُ أبي حنيفة وشيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ).

لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

أي: لله وَحْدَه الحُكمُ والتَّدبيرُ والتَّقديرُ والتَّصَرُّفُ في خَلقِه بما يَشاءُ مِن قَبلِ أن تَغلِبَ الرُّومُ فارِسَ، ومِن بعدِ غَلَبَتِهم لهم؛ فغَلَبَةُ أحَدِهما الآخَرَ واقِعةٌ بأمرِ اللهِ وقَضائِه وقَدَرِه، فحينَ غَلَبتْ فارِسُ الرُّومَ كان الأمرُ لله، وحينَ تَغلِبُ الرُّومُ فارِسَ يكونُ الأمرُ لله، فاللهُ وحْدَه هو الَّذي يَحكُمُ في خَلقِه بما يَشاءُ، ويَنصُرُ مَن يَشاءُ.

كما قال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [آل عمران: 26].

وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ....

أي: ويَومَ يَنتَصِرُ الرُّومُ على الفُرسِ[11] يَفرَحُ المؤمِنونَ بنَصرِ اللهِ للرُّومِ أهلِ الكِتابِ على الفُرسِ المُشرِكينَ.[12]

((الفروسية)) (ص: 96).

(11) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٨) في معنى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في هذه الآية احتمالين: الأول: «أن يكون عطفًا على القَبْل والبَعْد».

ووجَّهه بقوله: «كأنه حصر الأزمنة الثلاثة: الماضي والمستقبل والحال، ثم ابتدأ الإخبار بفرح المؤمنين بالنصر».

والثاني: «أن يكون الكلام قد تَمَّ في قوله: ﴿بَعْدُ﴾، ثم اســـتأنف عطف جملة أخبر فيها أن يوم غَلَبَة الروم الفرس يُفْرِحُ المؤمنين بِنَصْرِ اللَّهِ.

وعلَّق عليه بقوله:» وعلى هذا الاحتمال مشى المفسرون".

(12) قال السمعاني: (إنَّما فَرِحوا بذلك؛ لِصِدقِ وَعدِ الله تعالى، ولأنَّهم قالوا: كما نصَرَ اللهُ أهلَ الكتابِ على غيرِ أهلِ الكتابِ، كذلك ينصُرُنا عليكم).

... يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5).

((تفسير السمعاني)) (197/4).

وقال الزمخشري: (يفرَحُ المؤمِنونَ بنَصرِ الله وتغليبِه مَن له كتابٌ على مَن لا كتابَ له، وغيظِ مَن شَمِت بهم مِن كُفَّارِ مكَّةَ.

وقيل: نَصْرُ الله: هو إظهارُ صِدقِ المؤمنينَ فيما أخبَروا به المُشرِكينَ مِن غَلَبةِ الرُّومِ.

وقيل: نصرُ الله أنَّه ولَّى بعضَ الظَّالِمينَ بَعضًا، وفرَّقَ بيْنَ كَلِمِهم حتَّى تفانَوا وتناقَصوا، وفَلَّ هؤلاءِ شوكةَ هؤلاء، وفي ذلك قوَّةٌ للإسلامِ).

((تفسير الزمخشري)) (467/3).

وقال ابن عطية: (ويشبِهُ أنْ يعلَّلَ ذلك بما يَقتضيه النظرُ مِن محبةِ أنْ يغلبَ العدوُّ الأصغرُ؛ لأنَّه أيسرُ مؤنةً، ومتى غلَب الأكبرُ كثُر الخوفُ منه، فتأمَّلْ هذا المعنى معَ ما كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ترجَّاه مِن ظهورِ دينِه وشرعِ الله الذي بعَثه به، وغلبتِه على الأُممِ، وإرادةِ كفَّارِ مكَّةَ أنْ يرميَه الله بملكٍ يستأصلُه ويريحُهم منه).

((تفسير ابن عطية)) (328/4).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (6/14).

وقال ابن كثير: (قد كانت نُصرةُ الرُّومِ على فارسَ: يومَ وَقعةِ بَدرٍ، في قولِ طائفةٍ كبيرةٍ مِن العُلَماءِ؛ كابنِ عبَّاسٍ، والثَّوريِّ، والسُّدِّيِّ، وغيرِهم..

وقال آخَرون: بل كان نُصرةُ الرُّومِ على فارِسَ: عامَ الحُدَيبيَةِ؛ قاله عِكْرِمةُ، والزُّهريُّ، وقَتادةُ، وغيرُهم..

والأمرُ في هذا سَهلٌ قريبٌ).

((تفسير ابن كثير)) (6/303، 304).

وقال ابن القيم: (وهذه الغلبةُ مِن الرومِ لفارسَ كانت عامَ الحُديبيةِ بلا شكٍّ، ومَن قال: كانت عامَ وقعةِ بدرٍ فقد وهِم؛ لما ثبت في «صحيح البخاري»...).

((الفروسية)) (ص: 207، 208).

وقال السعدي: (أي: يفرَحونَ بانتصارِهم على الفُرسِ، وإن كان الجميعُ كُفَّارًا، ولكِنَّ بَعضَ الشَّرِّ أهوَنُ مِن بَعضٍ، ويَحزَنُ يومَئذٍ المُشرِكونَ).

((تفسير السعدي)) (ص: 636).

وقال ابن عاشور: (بِنَصْرِ اللَّهِ أي: بنَصرِ اللهِ إيَّاهم على الَّذين كانوا غلَبوهم مِن قَبلُ، وكان غَلَبُهم السَّابِقُ أيضًا بنَصرِ اللهِ إيَّاهم على الرُّومِ؛ لحِكمةٍ اقتضَت هذا التعاقُبَ، وهي تهيئةُ أسبابِ انتصارِ المُسلِمينَ على الفريقَينِ إذا حاربوهم بعدَ ذلك؛ لِنَشرِ دينِ اللهِ في بلادِهم).

((تفسير ابن عاشور)) (47/21).

يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ.

أي: يَنصُرُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عبادِه على مَن يشاءُ منهم، وَفْقَ ما تَقتَضيه حِكمَتُه سُبحانَه، كما نَصَرَ فارِسَ على الرُّومِ، ثمَّ الرُّومَ على فارِسَ، ثمَّ نَصَرَ المؤمِنينَ على فارِسَ والرُّومِ الكافِرين.

وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

أي: واللهُ هو الغالِبُ القاهِرُ القَويُّ المُنتَقِمُ مِن أعدائِه بلا مانعٍ يمنَعُه مِن ذلك، وهو الرَّحيمُ بعبادِه المُؤمِنينَ.

وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6).

وَعْدَ اللَّهِ.

أي: وَعَدَ اللهُ المؤمِنينَ بانتِصارِ الرُّومِ على الفُرسِ وَعدًا لا مَحالةَ مِن وُقوعِه.[13]

---

(13) قال ابن كثير: (لأنَّ اللهَ قد جرتْ سُنَّتُه أن يَنصُرَ أقرَبَ الطَّائِفَتينِ المقتَتِلَتينِ إلى الحَقِّ، ويجعَلَ لها العاقِبةَ). ((تفسير ابن كثير)) (305/6).

ذكر ابنُ عطية (٧/ ٩) في معنى قوله تعالى: ﴿وعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وعْدَهُ ولَكِنَّ أكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾: أنّ الكُفّار من قريش والعرب لا يعلمون أنّ الأمور مِن عند الله -تبارك وتعالى-، وأن وعْده لا يتخلَّف، وأن ما يورده نبيه -عليه الصلاة والسلام- حقٌّ.

ورجَّح هذا المعنى قائلًا: «وهذا الذي ذكرناه هو عمدة ما قيل».

ثم انتقد مستندًا إلى الإجماع ما حكاه ابنُ جرير من روايات للنزول تفيد مدنية الآية، فقال: «وقد حكى الطبريُّ وغيرُه روايات يردُّها النظر أوَّل قول، من ذلك أن بعضهم قال: إنما نزلت ﴿وعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وعْدَهُ﴾ بعد غلبة الروم لفارس ووصول الخبر بذلك.

لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ.

أي: لا يُخلِفُ اللهُ ما وَعَد به عِبادَه، سواءٌ فيما يَتعلَّقُ بنَصرِ الرُّومِ أو بِغَيرِه مِن الأُمورِ، فما أخبَرَ بوقوعِه لا بدَّ مِن تحقُّقِه؛ لِكَمالِ قُدرتِه، وكَمالِ صِدقِه سُبحانَه.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ [آل عمران: 9].

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ ما لله مِن صِفاتِ الكَمالِ، ومِن ذلك أنَّ وَعْدَه حَقٌّ لا يُخلَفُ؛ فهم يَجهَلونَ حِكمَتَه وقُدرَتَه، وصِدقَ خَبَرِه، ويُكَذِّبون بآياتِه.

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7).

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: أكثَرُ النَّاسِ يَعلَمونَ ما يَتعلَّقُ بشُؤونِ دُنياهم فحَسْبُ؛ كعُمرانِهم، وتدبيرِ مَعايشِهم.[14]

فهذا يقتضي أن الآية مدنية، والسورة كلها مكية بإجماع، ونحو هذا من الأقوال».

(14) قل ابنُ عطية (٧/ ٩) في معنى: ﴿ظاهِرًا﴾ في هذه الآية أقوالًا أخرى: الأول: «معناه: بيِّنًا».

ووجَّهه بقوله: «أي: ما أدَّته إليهم حواسهم، فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم».

الثاني: «معناه: ذاهبًا زائلًا».

ووجَّهه بقوله «أي: يعلمون من أمور الدنيا التي لا بقاء لها ولا عاقبة، ومثل هذه اللفظة قول الهُذَلي:

وعَيَّرَها الواشون أني أُحِبُّها ...

وتِلْكَ شَكاةٌ ظاهِرٌ عنك عارُها».

كما قال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [النجم: 29، 30].

وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ.

أي: وهم عن أمرِ آخِرتِهم غافِلونَ؛ فلا يُفكِّرونَ في شَأنِها، ولا يَعمَلونَ لأجْلِها.

الثالث: «قال الرماني: كل ما يُعلم بأوائل الرؤية فهو الظاهر، وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن».

وعلَّق (٧/ ١٠) عليه بقوله: «وفيه تقع الغفلة، وتقصير الجهال».

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (460/18)، ((تفسير القرطبي)) (7/14)، ((تفسير ابن كثير)) (305/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 637).

قال ابنُ عثيمين: (أثبت لهم العِلمَ، ولكِنَّه عِلمٌ قاصرٌ من وجهَينِ: الوجهُ الأوَّلُ: أنَّهم يَعلَمونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا لا باطنًا، وكم مِن الأمورِ الخفيَّةِ في هذه الحياةِ لا يعلَمُها أولئك الكُفَّارُ...

الوجهُ الثَّاني: أنَّهم يَعلَمونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا وليس كلَّ ظاهِرٍ...

يعني: أنَّهم لا يَعلَمونَ كُلَّ ظاهِرٍ، إنَّما يَعلَمونَ ظاهِرًا منها فقط، وأنَّ هناك ظواهِرَ أُخرى لا يَعلَمونَها أيضًا).

((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: 35، 36).

وقال ابن جزي: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا قيل: معناه: يعلمون ما يُدرَكُ بالحواسّ دونَ ما يُدرَك بالعقولِ، فهم في ذلك مثلُ البهائمِ، وقيل: الظاهِرُ ما يُعلَمُ بالنَّظرِ بأوائلِ العقولِ، والباطنُ ما يُعلَمُ بالنَّظرِ والدَّليلِ، وقيل: هو مِن الظُّهورِ بمعنى العلوّ في الدُّنيا، وقيل: ظاهِرٌ بمعنى زائلٍ ذاهبٍ، والأظهرُ أنَّه أراد بالظاهِرِ: المعرفةَ بأمورِ الدُّنيا ومصالِحِها؛ لأنَّه وصَفهم بعدَ ذلك بالغفلةِ عن الآخرةِ، وذلك يقتضي عدمَ معرفتِهم بها).

((تفسير ابن جزي)) (130/2).

وقال ابنُ عطية: (قال ابنُ عبَّاسٍ والحسنُ والجمهورُ: معناه ما فيه الظهورُ والعلوُّ في الدنيا مِن إتقانِ الصناعاتِ والمباني ومظانِّ كسبِ الأموالِ والفلاحاتِ ونحوِ هذا).

((تفسير ابن عطية)) (329/4).

سورةُ الرُّومِ

الآيات (8-10)

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)

غَريبُ الكَلِماتِ:

وَأَجَلٍ مُسَمًّى: أي: وَقْتٍ مُعَيَّنٍ مُحَدَّدٍ، وأصلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ، والمُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ، ومُسَمًّى: أي: مُثبَتٌ مُعَيَّنٌ.

وَأَثَارُوا الْأَرْضَ: أي: حَرَثوها، وقلَّبوها للزِّراعةِ، والإثارةُ: تحريكُ الشَّيءِ حتَّى يرتَفِعَ تُرابُه، وأصلُ (ثور): يدُلُّ على انبِعاثِ الشَّيءِ.

وَعَمَرُوهَا: العِمارةُ: نَقيضُ الخرابِ، وأصلُ (عمر): يدُلُّ على بقاءٍ وامتِدادِ زَمانٍ.

السُّوأَى: فُعلَى مِنَ السُّوءِ، تأنيثُ الأسوأِ، وهو: الأقبحُ، وقيل: هي مصدرٌ بمنزلةِ الإساءةِ، وقيل: هي اسمٌ لجهنَّمَ، سمِّيتْ سُوأَى؛ لِكَونِها تَسوءُ صاحِبَها، أو لقُبحِ منظرِها، أو هي عبارةٌ عن كلِّ ما يَقبحُ، والسُّوءُ: كلُّ ما يغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، وأصلُ (سوء): القبحُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8).

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ.

أي: أوَلم يتفكَّرْ أولئك الَّذين يَعلَمونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا وهم غافِلونَ عن الآخرةِ، في أنفُسِهم،(15) فيَعلَموا أنَّ اللهَ وحْدَه خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما بالحَقِّ؛ لِيَعبُدَه النَّاسُ ويُطيعوه فيما يأمُرُهم ويَنهاهم، ثمَّ هو يَبعَثُهم لِمُجازاتِهم ثَوابًا أو عِقابًا؟! فما خَلَقَ الكَونَ باطِلًا وعَبَثًا بلا غَرَضٍ صحيحٍ، وحِكمةٍ بالغةٍ، وإنَّما خَلَقه مُقترِنًا بالحَقِّ، مَصحوبًا بالحِكمةِ.

كما قال تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [المؤمنون: 115، 116].

---

(15) ذكر ابنُ عطية (٧/ ١٠) في معنى: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ احتمالين: الأول: «أن تكون الفكرة في ذواتهم وحواسهم وخلقتهم؛ ليستدلوا بذلك على الخالق المخترع».

والثاني: «أن يكون قوله: ﴿في أنفسهم﴾ ظرفًا للفكرة في خلق السماوات والأرض، ثم أخبر عقب هذا المعنى بأن الحق هو السبب في خلق السماوات والأرض».

ووجَّهه بقوله: «فيكون قوله: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ تأكيدًا لقوله: ﴿يَتَفَكَّرُوا﴾، كما تقول: أبصر بعينك واسمع بأذنك.

فقولك:» بعينك «و» بأذنك «تأكيد».

وقال سُبحانَه: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الدخان: 38، 39].

وَأَجَلٍ مُسَمًّى.

أي: ويَعلَموا أنَّ للسَّمواتِ والأرضِ وَقتًا محدَّدًا عندَ اللهِ، تَنتهي إليه، وتَفْنى فيه، وهو يومُ القيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه العِبادَ للحِسابِ والجزاءِ؟

وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ.

أي: وإنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ كافِرونَ بوُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ، جاحِدونَ لحُصولِ الجزاءِ يومَ القيامةِ.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9).

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: أوَلَم يَسِرْ في الأرضِ[16] هؤلاءِ المكَذِّبونَ بالبَعثِ، الغافِلونَ عن الآخِرةِ؛ فيَنظُروا كيف كان آخِرُ أمرِ الَّذين مِن قَبلِهم، فيَعتَبِروا ويتَّعِظوا حينَ يَرَوا آثارَ إهلاكِ اللهِ لهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم وشِرْكِهم، وتَكذيبِهم رُسُلَهم؟!

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً.

أي: قد أُعطِيَ أولئك مِنَ القُوَّةِ[17] ما لم يُعطَوها هم.

---

(16) قال ابن عطية: (ولا يَتوجَّهُ للكَفَرةِ أن يُعارِضَ منهم مَن لم يَسِرْ، فيَقولَ: لم أَسِرْ؛ لأنَّ كافَّةَ مَن سار مِنَ النَّاسِ قد نَقَلَت إلى مَن لم يَسِرْ؛ فاستَوَتِ المعرفةُ، وحصَل اليقينُ للكُلِّ، وقامت الحُجَّةُ، وهذا بيِّنٌ).
((تفسير ابن عطية)) (4/330).

(17) قيل: المرادُ بالقوَّةِ هنا: قوَّةُ الأبدانِ.
ومِمَّن قال بذلك: الرازيُّ.
يُنظر: ((تفسير الرازي)) (25/83).
وقيل: المرادُ: قوَّةُ الأبدانِ والعُقولِ.
ومِمَّن قال بذلك: البِقاعي.
يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/51).
قال ابن عاشور: (القوَّةُ: ...
مجموعُ صِفاتٍ يكونُ بها بقاءُ الشَّيءِ على أكمَلِ أحوالِه، كما في قَولِه: نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ [النمل: 33]؛ فقوَّةُ الأمَّةِ مجموعُ ما به تَدفَعُ العَواديَ عن كِيانِها، وتَستبقي صلاحَ أحوالِها؛ مِن عُدَدٍ حَربيَّةٍ، وأموالٍ، وأبناءٍ، وأزواجٍ.
وحالةُ مُشركي قُرَيشٍ لا تُداني أحوالَ تلك الأمَمِ في القوَّةِ).
((تفسير ابن عاشور)) (21/57).

وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا.

أي: وقلَّبوا الأرضَ[18] وجعَلوها أكثرَ عُمرانًا مِمَّا فعَلوا هم.

كما قال تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [غافر: 82].

---

(18) قيل: المرادُ بقولِه تعالى: وَأَثَارُوا الْأَرْضَ: حرَثوها وقَلَّبوها لزِراعتِها.

ومِمَّن قال بذلك: السمعانيُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والعُلَيمي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (4/199)، ((تفسير البغوي)) (3/571)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/417)، ((تفسير القرطبي)) (14/9)، ((تفسير ابن جزي)) (2/131)، ((تفسير العليمي)) (5/272)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 53).

ومِمَّن قال بهذا القولِ من السَّلَفِ: مجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/466)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (6/485).

وقيل: المرادُ: قَلَّبوها لاستنباطِ المياهِ، واستِخراجِ المعادِنِ، وزَرعِ البُذورِ، وغيرِ ذلك، فأخرَجوا ما فيها مِنَ المنافِعِ.

ومِمَّن قال بذلك: ابنُ عطيَّة، والبيضاوي، والبِقاعي، والقاسمي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/330)، ((تفسير البيضاوي)) (4/202)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/51)، ((تفسير القاسمي)) (8/7)، ((تفسير السعدي)) (ص: 638).

وقيل: الأقربُ أن يكونَ (أثاروا) هنا تمثيلًا لحالِ شِدَّةِ تصَرُّفِهم في الأرضِ وتغَلُّبِهم على مَن سِواهم، بحالِ مَن يُثيرُ ساكِنًا ويُهيجُه.

ومِمَّن قال بذلك: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (21/57).

وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ.

أي: وجاءتْهم رُسلُهم بالبَيِّناتِ الدَّالَّاتِ على الحقِّ، وعلى صِدقِهم وصِحَّةِ ما جاؤوهم به مِن عندِ الله تعالى، فكذَّبوهم، فلمْ يَقدِروا على الامتناعِ مِن عذابِ اللهِ مع شِدَّةِ قُواهم، فما نفَعَتْهم قوَّتُهم، ولا أغنَتْ عنهم إثارتُهم الأرضَ وعِمارتُهم لها!

فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ.

أي: فلمْ يكُنِ اللهُ ليُعَذِّبَهم بلا ذنْبٍ أتَوه، ولم يكُنْ لِيُهلِكَهم مِن قَبلِ إرسالِ الرُّسلِ إليهم، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم.

وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

أي: ولكنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم؛ بالكُفرِ باللهِ، والإشراكِ به، وتكذيبِ رُسُلِه، ومَعصيتِه.

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10).

أي: ثمَّ كان آخِرَ أمرِ أهلِ السُّوءِ[19] أنْ حلَّ بهم عذابُ اللهِ؛[20] بسببِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ سُبحانَه، واستِهزائِهم المستَمِرِّ بها.[21]

---

(19) قيل: المعنى: أساؤوا بكُفرِهم وشِركِهم.
وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والزجَّاج، والواحدي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (466/18)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (179/4)، ((الوسيط)) للواحدي (429/3).
وقال الشوكاني: (أي: عَمِلوا السَّيِّئاتِ مِن الشِّركِ والمعاصي).
((تفسير الشوكاني)) (248/4).
(20) قيل: السُّوأى: هي النَّارُ في الدَّارِ الآخرةِ.
وممَّن قال بذلك: الزجَّاجُ، وابن أبي زمنين، والسمعاني، والزمخشري، والرازي، والشنقيطي، ونسَبَه الواحديُّ للأكثرينَ.
يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (179/4)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (356/3)، ((تفسير السمعاني)) (199/4)، ((تفسير الزمخشري)) (470/3)، ((تفسير الرازي)) (84/25)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (171/6)، ((الوسيط)) للواحدي (429/3).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (466/18).
وقيل: المرادُ: الدَّمارُ والهلاكُ في الدُّنيا، وعذابُ النَّارِ في الآخرةِ.
وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (466/18)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5664/9)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (53/15).
وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، قال: العذابُ في الدُّنيا والآخرةِ.
يُنظر: ((تفسير الماوَرْدي)) (301/4).
وقيل: السُّوأى بمعنى الإساءةِ، أو الحالةِ السَّيِّئةِ الشَّنيعةِ، فيكونُ المعنى: أنَّهم أساؤوا بذُنوبِهم وعِصيانِهم حتَّى وقَعوا في آخِرِ الأمرِ في التَّكذيبِ بآياتِ الله، والاستهزاءِ بها.
وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ.
يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 638).
وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عُيَيْنةَ.
يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (430/3).
(21) ذكر ابنُ كثير (١١/ ١٦) قولين في معنى هذه الآية: الأول: أن الكفار إنما «أوتوا من أنفسهم؛ حيث كذبوا بآيات الله، واستهزءوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة في تكذيبهم المتقدم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ

كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وكانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ونُقَلِّبُ أفْئِدَتَهُمْ وأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ونَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمّا زاغُوا أزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمْ أنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]».

ووجَّهه بقوله: «وعلى هذا تكون ﴿السوأى﴾ منصوبة مفعولًا لـ ﴿أساءوا﴾».

الثاني: أن المعنى: «﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أساءُوا السُّوأى﴾ أي: كانت السوأى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله، وكانوا بها يستهزئون».

ووجَّهه بقوله: «فعلى هذا تكون ﴿السوأى﴾ منصوبة خبر ﴿كان﴾».

ثم ذكر بأن هذا المعنى هو «توجيه ابنُ جرير، ونقله عن ابن عباس، وقتادة».

ثم رجَّحه بقوله: «وهو الظاهر».

ولم يذكر مستندًا.

سورةُ الرُّومِ

الآيات (11–16)

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12)
وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ
يَتَفَرَّقُونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

يُبْلِسُ: أي: يَيأسُ، وتَنقَطِعُ حُجَّتُه، وأصلُ (بلس): يدُلُّ على يأسٍ.

رَوْضَةٍ: الرَّوضةُ: هي البُستانُ الَّذي هو فِي غايةِ النَّضارةِ والحُسنِ، والمرادُ بها الجنَّةُ، والرَّوضةُ: كلُّ أرضٍ ذاتِ نباتٍ وماءٍ، وأصلُ (روض): يدُلُّ على اتِّساعٍ.

يُحْبَرُونَ: أي: يُسَرُّونَ ويُنعَّمونَ، والحَبْرةُ: السُّرورُ، وأصلُ (حبر): يدُلُّ على الأثَرِ في حُسنٍ وبَهاءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11).

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ.

أي: اللهُ وحْدَه الَّذي يَبدأُ إنشاءَ جميعِ المَخلوقاتِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُها فيُحييها مرَّةً ثانيةً بعدَ فَنائِها.

ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

أي: ثمَّ تُردُّونَ يومَ القيامةِ إلى اللهِ وحْدَه، فيُجازيكم بأعمالِكم.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12).

أي: ويومَ القيامةِ يَيئَسُ المُشرِكونَ مِن رَحمةِ اللهِ، وتَنقَطِعُ حُجَّتُهم ويَندَمونَ.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13).

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ.

أي: ولم يكُنْ للمُشرِكينَ مِن معبوداتِهم الباطلةِ -الَّتي جعَلوها شُرَكاءَ للهِ- شُفَعاءُ يَشفَعونَ لهم في الآخِرةِ، فيَجلِبونَ لهم نَفعًا، أو يَدفَعونَ عنهم ضُرًّا.(22)

كما قال تعالى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [القصص: 62].

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [الأنعام: 94].

---

(22) ممَّن ذهب إلى أنَّ معنى شُركائِهم: مَعبوداتُهم الَّتي اتَّخَذوها شُركاءَ للهِ في عبادتِه: السمعانيُّ، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: معنى شـــركائِهم: الَّذين كانوا يتَّبِعونَهم على ما دَعَوْهم إليه مِن الضَّـــلالةِ، فيُشـــاركونَهم في الكفرِ باللهِ، والمُعاوَنةِ على أذى رُسُلِه.

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (469/18)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5665/9).

وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ.

أي: ويَكفُرُ أولئك المُشرِكونَ بمَنِ اتَّخَذوهم شُرَكاءَ للهِ تعالى.[23]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14).

أي: ويَومَ القيامةِ يتفرَّقُ الخَلقُ بيْنَ مُؤمِنينَ وكافِرينَ.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15).

---

(23) ممَّن قال بأنَّ المرادَ: كُفرُ المشركينَ بآلهتِهم المزعومةِ وتبرُّؤُهم منهم: السمعانيُّ، وابن عطية، والرسعني، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (4/200)، ((تفسير ابن عطية)) (4/331)، ((تفسير الرسعني)) (6/12)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/56)، ((تفسير الشوكاني)) (4/251)، ((تفسير القاسمي)) (8/7).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: كُفرُ معبوداتِهم بهم: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (6/306).

قال القرطبي: وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ قالوا: ليسوا بآلِهةٍ، فتبرَّؤُوا منها، وتبرَّأَتْ منهم).

((تفسير القرطبي)) (14/11).

ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (3/572).

وقال السعديُّ: (تبرَّأَ المشركون ممَّن أشرَكوهم مع الله، وتبرَّأَ المعبودون وقالوا: تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ [القصص: 63] ، والْتَعَنوا وابتعَدوا).

((تفسير السعدي)) (ص: 638).

وقال ابن عثيمين: (المعبودون يَكفرون، والعابِدون أيضًا يَكفرون؛ كلٌّ منهم يَكفُرُ ببعضٍ).

((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 75).

أي: فأمَّا الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فهُم في بساتينَ مُشتَمِلةٍ على المياهِ والأزهارِ، والأشجارِ والنَّباتاتِ البَهيجةِ، والرَّوائحِ الطَّيِّبةِ والمَناظِرِ الجميلةِ: يُسَرُّون فيها سُرورًا شديدًا، يَظهَرُ أثرُه وحُسْنُه عليهم.(24)

---

(24) اختلف في معنى: ﴿يُحْبَرون﴾ في هذه الآية على ثلاثة أقوال: الأول: يُكْرَمون.

الثاني: ينعمون.

الثالث: يتلذذون بالسماع والغناء.

وقد ذكر ابنُ جرير (١٨/ ٤٧٠ – ٤٧١) أن معنى: ﴿يُحْبَرون﴾ أي: يُسَرُّون، ويُلَذَّذون بالسماع، وطيب العيش الهنيّ، وأن معنى الحَبْرَة عند العرب: السرور والغبْطَة.

ثم علَّق (١٨/ ٤٧٣) على هذه الأقوال بقوله: «وكل هذه الألفاظ التي ذكرنا عمن ذكرناها عنه تعود إلى معنى ما قلنا».

وعلَّق ابنُ عطية (٧/ ١٤) على القول الثالث بقوله: «وهذا نوع من الحَبْرَة».

وعلَّق ابنُ كثير (١١/ ١٧) على هذه الأقوال بقوله: «والحَبْرَة أعمُّ مِن هذا كلِّه».

اختلف في معنى: ﴿يُحْبَرون﴾ في هذه الآية على ثلاثة أقوال: الأول: يُكْرَمون.

الثاني: ينعمون.

الثالث: يتلذذون بالسماع والغناء.

وقد ذكر ابنُ جرير (١٨/ ٤٧٠ – ٤٧١) أن معنى: ﴿يُحْبَرون﴾ أي: يُسَرُّون، ويُلَذَّذون بالسماع، وطيب العيش الهنيّ، وأن معنى الحَبْرَة عند العرب: السرور والغبْطَة.

ثم علَّق (١٨/ ٤٧٣) على هذه الأقوال بقوله: «وكل هذه الألفاظ التي ذكرنا عمن ذكرناها عنه تعود إلى معنى ما قلنا».

وعلَّق ابنُ عطية (٧/ ١٤) على القول الثالث بقوله: «وهذا نوع من الحَبْرَة».

وعلَّق ابنُ كثير (١١/ ١٧) على هذه الأقوال بقوله: «والحَبْرَة أعمُّ مِن هذا كلِّه».

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16).

أي: وأمَّا الَّذين كَفَروا وكذَّبوا بآياتِ اللهِ، وأنكَروا البَعثَ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجزاءِ: فأولئك يُؤتَى بهم إلى النَّارِ، فيَبقَونَ فيها، لا يَغيبُ عنهم عذابُها.[25]

---

(25) قال الماوَرْدي: (قوله تعالى: فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ فيه خمسةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: مُدْخَلون، قاله يحيى بنُ سلَّام.
الثَّاني: نازِلون، ومنه قولُه: إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ [البقرة: 180] و [المائدة: 106]، أي: نزَل به.
الثَّالثُ: مُقيمون، قاله ابنُ شجرة.
الرابعُ: مُعَذَّبون.
الخامسُ: مجموعون.
ومعاني هذه التَّأويلاتِ مُتقارِبةٌ).
((تفسير الماوردي)) (302/4).
ويُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (648/2).
وقال ابن عاشور: (ومُحْضَرُونَ يجوزُ أنْ يكونَ مِن الإحضارِ، أي: جَعْلِ الشَّيءِ حاضِرًا، أي: لا يَغيبونَ عنه، أي: لا يَخرُجونَ منه...، ويجوزُ أنْ يكونَ مُحْضَرُونَ بمعنَى: مَأْتِيٌّ بهم إلى العذابِ، فقد كثُر في القرآنِ استعمالُ مُحْضَرٍ ونحوِه بمعنَى مُعاقَبٍ؛ قال تعالى: وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ [الصافات: 158]).
((تفسير ابن عاشور)) (64/21).
وممَّن ذهَب في الجملةِ إلى أنَّ المعنى: أنَّهم حاضِرون العذابَ، مُقيمون فيه، لا يَغيبون عنه: الزمخشريُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وأبو السعود، والعُلَيمي، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي.
يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (471/3)، ((تفسير ابن عطية)) (332/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (419/3)، ((تفسير القرطبي)) (14/14)، ((تفسير النسفي)) (694/2)، ((تفسير أبي السعود)) (54/7)، ((تفسير العليمي)) (275/5)، ((تفسير الشوكاني)) (252/4)، ((تفسير الألوسي)) (28/11)، ((تفسير القاسمي)) (7/8).
وقال ابن جرير: (مُحْضَرُونَ قد أحْضَرهم اللهُ إيَّاها، فجَمَعهم فيها ليَذوقوا العذابَ الَّذي كانوا به في الدُّنيا يُكَذِّبونَ).
((تفسير ابن جرير)) (473/18).
ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 82).
وقال البِقاعي: (مُحْضَرُونَ مِن أيِّ محضَرٍ كان، بالسَّوقِ الحَثيثِ، والزَّجرِ العنيفِ، فإذا وصَلوا إلى مقرِّه وُكِّل بهم مَن يُديمُ كَونَهم كذلك –لإفادةِ الجملةِ الاسميَّةِ الدَّوامَ–، فلا يَغيبون عنه، ولا يُخفَّفُ عنهم).

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ [سبأ: 38].

((نظم الدرر)) (59/15).

سورةُ الرُّومِ

الآيات (17–23)

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا
وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ
(20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً
وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

وَعَشِيًّا: أي: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو مِن الظُّهرِ إلى نِصفِ اللَّيلِ، أو صلاةَ العصرِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ، وقِلَّةِ وُضوحٍ في الشَّيءِ.

تُظْهِرُونَ: أي: تَدخُلونَ في وقتِ الظَّهيرةِ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17).

أي: تَنزَّهَ اللهُ تعالى عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، فنَزِّهوه -أيُّها النَّاسُ- حينَ حُلولِ المساءِ، وحينَ حُلولِ الصَّباحِ.[26]

---

(26) قيل: المرادُ بالتَّسبيحِ هنا: الصَّلاةُ، والمرادُ بقَولِه تعالى: حِينَ تُمْسُونَ: صلاةُ المغربِ.

ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/473).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/474).

وقيل: المراد بقَولِه: تُمْسُونَ المغربُ والعِشاءُ.

ومِمَّن اختاره: مقاتِلُ بنُ سُليمانَ، والزجَّاجُ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والسمعاني، والخازن، وابن تيميَّة، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/409)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (4/180)، ((تفسير السمرقندي)) (3/8)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (9/5668)، ((تفسير السمعاني)) (4/203)، ((تفسير الخازن)) (3/388)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (5/234)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (6/344)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 533)، ((تفسير العليمي)) (5/276)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 88، 93).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/474).

وقيل: المراد بقَولِه: تُمْسُونَ: صلاةُ العصر وصلاةُ المغربِ.

ومِمَّن اختاره: الثعلبي، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (7/297)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/62).

ومِمَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: تُصْبِحُونَ: صلاةُ الفَجرِ: مقاتِلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، والسمرقندي، والثعلبي، ومكي، والسمعاني، والخازن، وابن تيمية، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، والعليمي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفســير مقاتل بن ســليمان)) (409/3)، ((تفســير ابن جرير)) (473/18)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (180/4)، ((تفسير السمرقندي)) (8/3)، ((تفسير الثعلبي)) (297/7)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5668/9)، ((تفسير الســمعاني)) (203/4)، ((تفسـير الخازن)) (388/3)، ((الجواب الصـحيح)) لابن تيمية (234/5)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (344/6)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 533)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (62/15)، ((تفسير العليمي)) (276/5)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 88، 93).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (474/18).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالتَّســبيحِ هنا: تنزيهُ اللهِ تعالى عندَ المســاءِ وهو إقبالُ اللَّيلِ بظَلامِه، وعندَ الصَّــباحِ وهو إســفارُ النَّهارِ عن ضيائِه: ابنُ كثير، والبِقاعي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (307/6)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (59/15، 60)، ((تفسير الشوكاني)) (252/4).

واختار الرازيُّ أنَّ المعنى: نَزِّهوه عن صِــفاتِ النَّقصِ، وصِــفُوه بصِــفاتِ الكمالِ، ثمَّ قال : (لأنَّ التَّنزيهَ المأمورَ به يَتناوَلُ التَّنزيهَ بالقلبِ وهو الاعتقادُ الجازِمِ، وباللِّسانِ مع ذلك وهو الذِّكرُ الحسَنُ، وبالأركانِ معهما جميعًا وهو العملُ الصَّالحُ، والأوَّلُ هو الأصلُ، والثَّاني ثمرةُ الأوَّلِ، والثالثُ ثمرةُ الثَّاني؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا اعتقَد شيئًا ظهَرَ مِن قلبِه على لسانِه، وإذا قال ظهَرَ صِدقُه في مَقالِه مِن أحوالِه وأفعالِه، واللِّسانُ تَرْجُمانُ الجنانِ، والأركانُ بُرهانُ اللِّسانِ، لكنِ الصَّلاةُ أفضَلُ أعمالِ الأركانِ، وهي مُشتمِلةٌ على الذِّكرِ باللِّسانِ، والقصدِ بالجنانِ، وهو تنزيهٌ في التَّحقيقِ، فإذا قال: نَزِّهوني، وهذا نوعٌ مِن أنواعِ التَّنزيهِ، والأمرُ المُطلَقُ لا يختصُّ بنوعٍ دُونَ نوعٍ؛ فيجبُ حملُه على كلِّ ما هو تنزيهٌ؛ فيكونُ أيضًا هذا أمرًا بالصَّلاةِ).

((تفسير الرازي)) (86/25).

وقال ابن جُزَي: (فَسُبْحَانَ اللَّهِ هذا تعليمٌ للعِبادِ، أي: قُولوا: سُبحانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ).

((تفسير ابن جزي)) (131/2).

وممَّن ذهب إلى العمومِ: السعديُّ، فقال: (فهذه الأوقاتُ الخمسةُ أوقاتُ الصَّلواتِ الخَمسِ، أمَرَ اللهُ عِبادَه بالتَّسبيحِ فيها والحَمدِ، ويَدخُلُ في ذلك الواجِبُ منه، كالمُشتمِلةِ عليه الصَّلواتُ الخَمسُ، والمُستحَبُّ، كأذكارِ الصَّباحِ والمساءِ وأدبارِ الصَّلَواتِ، وما يَقترِنُ بها مِن النَّوافِلِ؛ لأنَّ هذه الأوقاتَ الَّتي اختارها اللهُ لأوقاتِ المفروضاتِ هي أفضَلُ مِن غيرِها؛ فالتَّسبيحُ والتَّحميدُ فيها والعبادةُ فيها: أفضَلُ مِن غيرِها، بل العبادةُ وإن لم تَشتَمِلْ على قَولِ: «سُبحانَ الله» فإنَّ الإخلاصَ فيها تنزيهٌ لله بالفِعلِ أن يكونَ له شريكٌ في العبادةِ، أو أن يَستحِقَّ أحَدٌ مِنَ الخَلقِ ما يَستَحِقُّه مِن الإخلاصِ والإنابةِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 638).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (65/21–67).

قال الزجَّاج: (ومعنى: سُبحان اللهِ: تنزيهُ اللهِ من السُّوءِ.

هذا لا اختلافَ فيه).

((معاني القرآن وإعرابه)) (181/4).

كما قال تعالى: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى [طه: 130].

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18).

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: وهو وَحْدَه المُستَحِقُّ وَصْفَه بصِفاتِ الكَمالِ مع محبَّتِه وتَعظيمِه، في السَّمواتِ والأرضِ.[27]

---

(27) قيل: المرادُ: أنَّه المحمودُ مِن أهلِ السَّمَواتِ ومِن أهلِ الأرضِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/476)، ((تفسير السمرقندي)) (3/8)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (9/5669)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 533)، ((تفسير ابن عاشور)) (21/66).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (3/573).

وقال ابنُ كثير: (أي: هو المحمودُ على ما خلَقَ في السَّمَواتِ والأرضِ).

((تفسير ابن كثير)) (6/307).

واختار ابنُ عثيمين أنَّ الآيةَ أعَمُّ مِن قولِ مَن قال: يَحمَدُه أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، مع تقريرِه أنَّ هذا المعنى داخلٌ في الآيةِ، وأنَّ المعنى: أنَّ اللهَ تعالى مُستحِقٌّ للحمدِ على ما خلَقَه في السَّمواتِ والأرضِ، سواءٌ حُمِدَ أو لم يُحمَدْ، فكلُّ ما في السَّمواتِ والأرضِ فإنَّ اللهَ تعالى يُحمَدُ عليه، سواءٌ أمورُ الخَيرِ أو الشَّرِّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 90).

وقيل: الآيةُ إرشادٌ إلى الحمدِ، وأنَّ على المُمَيِّزينَ كلِّهم مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ أن يَحمَدوه.

وممَّن قال بذلك في الجملةِ: النسفي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير النسفي)) (2/694)، ((تفسير الشوكاني)) (4/252).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (8/381).

وَعَشِيًّا.

أي: ونزِّهوا اللهَ -أيُّها النَّاسُ- وَقْتَ العَشِيِّ.(28)

كما قال تعالى: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ [غافر: 55].

وَحِينَ تُظْهِرُونَ.

أي: ونزِّهوا اللهَ وَقْتَ الإظهارِ.(29)

(28) قيل: المرادُ بالعَشيِّ هنا: صلاةُ العصرِ.

وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابن تيميَّةَ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (476/18)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (344/6)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: 92).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (474/18).

وقيل: العَشِيُّ هنا إشارةٌ إلى صلاةِ العِشاءِ.

وممَّن قال بذلك: الثعلبي، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (297/7)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (62/15).

وقيل: العَشِيُّ: شِدَّةُ الظَّلامِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (307/6).

(29) قيل: المرادُ بالإظهارِ هنا: صلاةُ الظُّهرِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (476/18)، ((جامع المسائل)) لابن تيميَّةَ (344/6).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (474/18).

وقيل: هو قوَّةُ الضِّياءِ.

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19).

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ.

أي: يُخرِجُ اللهُ بقُدرتِه الحَيَّ مِن الميّتِ؛ كالإنسانِ مِن النُّطفةِ، والنَّباتِ مِن الحَبِّ، والدَّجاجِ مِن البَيضِ، والمؤمِنِ مِن الكافِرِ.[30]

وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (307/6).

(30) قال ابن عثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمرانَ، الآية (27): (والمرادُ بالحيّ: الحيُّ حياةً حِسّيَّةً ومَعنويَّةً؛ وذلك لأنَّ اللَّفظَ صالحٌ لِلمَعنَيَين، وإذا صلَح اللَّفظُ للمعنيَين بدُونِ تَنافٍ بيْنَهما، فالواجبُ حَمْلُه عليهما.

الحيُّ حياةً حِسّيَّةً أمثلتُه كثيرةٌ، فالإنسانُ مخلوقٌ مِن نُطفةٍ، وهي ميتةٌ بالمعنى اللُّغويّ، فصار حيًّا مِن مَيتٍ...

أو يُخرِجُ حيًّا ناميًا مُتحرِّكًا مِن شَيءٍ لا ينمو، فهو ميتٌ؛ كإخراجِ الفَرخِ مِنَ البَيضةِ؛ فإنَّ البيضةَ مَيتةٌ يخرُجُ منها فرخٌ حيٌّ.

هذا الموتُ الحِسّيُّ.

أمَّا المعنويُّ: فيُخرِجُ الحيَّ مِنَ المَيتِ أي: المؤمنَ مِنَ الكافرِ؛ لأنَّ المؤمنَ حيٌّ حياةً قلبيَّةً، والكافرَ ميتٌ؛ يُخرِجُ الحيَّ العالِمَ مِنَ الميتِ الجاهلِ).

((تفسير ابن عثيمين – سورة آل عمران)) (164/1).

وقال ابنُ كثيرٍ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنعامِ، الآية (95): (وقد عبَّروا عن هذا وهذا بعباراتٍ كلُّها مُتقارِبةٌ مؤدِّيةٌ للمعنى؛ فمِن قائلٍ: يُخرِجُ الدَّجاجةَ مِنَ البَيضةِ، والبيضةِ مِنَ الدَّجاجةِ، ومِن قائلٍ: يُخرِجُ الولدَ الصَّالحَ مِنَ الكافرِ، والكافرِ مِنَ الصَّالحِ، وغير ذلك مِنَ العِباراتِ الَّتي تَنتظِمُها الآيةُ وتَشملُها).

((تفسير ابن كثير)) (304/3).

وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ.

أي: ويُخرِجُ اللهُ بقُدرتِه الميّتَ مِن الحَيِّ؛ كالنُّطفةِ مِن الرَّجُلِ، والحَبِّ مِن النَّباتِ، والبَيضِ مِن الدَّجاجِ، والكافِرِ مِن المؤمِنِ.

وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.

أي: ويُنزِلُ اللهُ الماءَ على الأرضِ اليابِسةِ القاحِلةِ، فتَنبُتُ بعدَ جُدوبِها.

كما قال تعالى: وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ [يس: 33، 34].

وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ.

أي: وكما يُحيي اللهُ الأرضَ بعدَ موتِها، فيُخرِجُ نباتَها وزَرْعَها بقُدرتِه، يُحييكم –أيُّها النَّاسُ– بعدَ مَوتِكم، ويُخرِجُكم أحياءً مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ.

كما قال تعالى: وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [الزخرف: 11].

وقال سُبحانَه: وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا [نوح: 17، 18].

وقال تعالى: وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ [فاطر: 9]

وقال عز وجل: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الأعراف: 57].

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20).

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ اللهِ تعالى، كوحدانيَّتِه وكَمالِ قُدرتِه: أنَّه ابتدَأ خَلْقَكم مِن تُرابٍ، فخَلَق أباكم آدَمَ منه.

كما قال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ... الآية [الحج: 5].

ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ.

أي: ثمَّ تَصيرونَ مِن هذا التُّرابِ الجامِدِ بَشَرًا أحياءً تنتَشِرونَ في الأرضِ، وتَسعَونَ فيها.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21).

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ الله تعالى: أنَّه خَلَق لكم مِن أنفُسِكم أزواجًا؛ لِتَحصُلَ المناسَبةُ والأُلْفةُ والاطمِئنانُ بيْنَكم.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا [الأعراف: 189].

وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً.

أي: وجعَلَ اللهُ بيْنَكم -أيُّها الأزواجُ- مَحبَّةً عَظيمةً، ورَحمةً يَعطِفُ بها بَعضُكم على بعضٍ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

أي: إنَّ في خَلْقِ اللهِ لكم أزواجًا مِن أنفُسِكم لِتَسكُنوا إليها، وما جعَل بيْنَكم مِن المَودَّةِ والرَّحمةِ- لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ على قُدرةِ اللهِ، وحِكمتِه ورَحمتِه، وغيرِها، لِقَومٍ يُعمِلونَ فِكرَهم في ذلك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22)﴾.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ومِنَ العَلاماتِ الدَّالَّةِ على توحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه العظيمةِ، وغيرِ ذلك: إيجادُه السَّمَواتِ والأرضَ مِنَ العَدَمِ، وعلى تَقديرٍ ونظامٍ بديعٍ، مع ما فيهما مِن المخلوقاتِ العَظيمةِ المُتنَوِّعةِ.

وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ.

أي: ومِن العَلاماتِ أيضًا: اختِلافُ لُغاتِكم وألوانِ أجسادِكم، مع أنَّ أصلَكم واحدٌ؛ مِن أبيكم آدَمَ.

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ... [فاطر: 27، 28].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ.

أي: إنَّ في خَلْقِ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ، واختلافِ ألسُنِ البشَرِ وألوانِهم: لَعَلاماتٍ وأدِلَّةً لأُولي العِلمِ، ومِن ذلك الاستِدلالُ بها على وحدانيَّةِ الله تعالى وقُدرتِه على إعادةِ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ لِلْعَالِمِينَ بكَسرِ اللَّامِ الثَّانيةِ: جمعُ عالِمٍ، أي: هذه الآياتُ للعُلَماءِ؛ لأنَّ العالِمَ أقرَبُ إلى الاعتبارِ مِن الجاهِلِ.[31]

2- قراءة لِلْعَالَمِينَ بفَتحِ اللَّامِ الثَّانية: جَمعُ عالَمٍ.[32]

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23).

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

أي: ومِنَ العلاماتِ أيضًا مَنامُكم في اللَّيلِ والنَّهارِ؛ لِراحةِ أبدانِكم، وطَلَبُكم رِزقَ اللهِ فيهما.[33]

---

(31) قرأ بها حَفصٌ عن عاصمٍ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/344).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/264)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 282)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 557، 558).

(32) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/344).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (2/264)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 558).

(33) وممَّن قال بأنَّ الآيةَ تعني أنَّ النَّومَ وطَلَبَ الرِّزقِ كليهما يَكونانِ في اللَّيلِ وفي النَّهارِ: ابنُ عطية، والبيضاوي، والبِقاعي، وأبو السعود، وابن عاشور، وابن عثيمين.
ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (6/310).
وقيل المرادُ في الآيةِ: أنَّ النَّومَ في اللَّيلِ، والابتغاءَ مِن فَضلِه: في النَّهارِ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.

أي: إنَّ في مَنامِكم باللَّيلِ والنَّهارِ، وابتغائِكم مِن فَضلِ اللهِ فيهما: لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ لِقَومٍ يَسمَعونَ سَماعَ تدَبُّرٍ وتفَهُّمٍ، ومِن ذلك الاستِدلالُ بهما على رحمةِ اللهِ، وتَوحيدِه، وقُدرتِه على بَعثِ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم.(34)

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، وابن القيم.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (479/18)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (431/3)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (186/1).

قال ابنُ عطية: (ذكَرَ تعالى النَّومَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وعُرْفُ النَّومِ إنَّما هو باللَّيلِ وحْدَه، ثمَّ ذَكَر الابتغاءَ مِن فَضلِه كأنَّه فيهما، وإنَّما معنى ذلك: أنَّه عَمَّ باللَّيلِ والنَّهارِ، فسَمَّى الزَّمانَ، وقَصَد مِن ذلك تعديدَ آيةِ النَّومِ وتعديدَ آيةِ ابتغاءِ الفَضلِ؛ فإنَّهما آيتانِ تَكونانِ في لَيلٍ ونهارٍ، والعُرفُ يجيزُ كُلَّ واحدةٍ مِن النِّعمَتينِ، أي محلَّها مِن الأغلَبِ.

وقال بعضُ المفَسِّرينَ: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ.

وهذا ضعيفٌ، وإنَّما أراد أن يرتِّبَ النَّومَ لِلَّيلِ، والابتِغاءَ للنَّهارِ، ولَفظُ الآيةِ لا يُعطي ما أراد).

((تفسير ابن عطية)) (333/4).

وقال الشوكاني: (قيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقديرُ: ومِن آياتِه مَنامُكم باللَّيلِ، وابتغاؤُكم مِن فَضلِه بالنَّهارِ.

وقيل: المعنى صحيحٌ مِن دونِ تقديمٍ وتأخيرٍ، أي: ومِن آياتِه العظيمةِ أنَّكم تنامون باللَّيلِ، وتنامون [بالنَّهارِ] في بَعضِ الأحوالِ للاستِراحةِ، كوقتِ القَيلولةِ؛ وابتغاؤكم مِن فَضلِه فيهما؛ فإنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يقعُ فيه ذلك، وإن كان ابتغاءُ الفَضلِ في النَّهارِ أكثَرَ.

والأوَّلُ: هو المناسِبُ لسائرِ الآياتِ الواردةِ في هذا المعنى، والآخِرُ: هو المناسِبُ للنَّظمِ القرآنيّ هاهنا).

((تفسير الشوكاني)) (253/4، 254).

(34) قال القُرطبي: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ يريدُ: سَماعَ تفَهُّمٍ وتدَبُّرٍ.

وقيل: يَسمَعونَ الحَقَّ فيتَّبِعونه.

وقيل: يَسمَعونَ الوَعظَ فيَخافونَه.

وقيل: يَسمَعونَ القُرآنَ فيُصَدِّقونَه، والمعنى متقارِبٌ.

وقيل: كان منهم مَن إذا تُليَ القرآنُ وهو حاضِرٌ سَدَّ أذُنَيه؛ حتَّى لا يَسمَعَ، فبَيَّنَ اللهُ عزَّ وجَلَّ هذه الدَّلائِلَ عليه).

((تفسير القرطبي)) (18/14).

سورةُ الرُّومِ

الآيات (24–27)

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا
دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ
قَانِتُونَ (26) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

غَريبُ الكَلِماتِ:

قَانِتُونَ: أي: مُطيعونَ خاضِعونَ، وأصلُ (قنَت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ.

الْمَثَلُ الْأَعْلَى: أي: الصِّفةُ العُليا، وهي أنَّه لا إلهَ غيرُه، والمثَلُ يَرِدُ بمعنَى الصِّفةِ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24).

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا.

أي: وِمن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على عظَمةِ اللهِ تعالى وغَيرِها: أنْ يُبدِيَ لكم البَرْقَ، فتَخافوا وتَطمَعوا.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ [الرعد: 12].

وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.

أي: ويُنزِّلُ اللهُ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فيُحيي به الأرضَ اليابِسةَ، فتُخرِجُ نباتَها بعدَ جُدوبِها.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

أي: إنَّ في إظهارِ الله لكم البَرْقَ، وإنزالِه المطَرَ، وإحياءِ الأرضِ به: لَعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها القَومُ الَّذين يَعقِلونَ حُجَجَ اللهِ، ومِن ذلك الاستِدلالُ بها على قُدرةِ الله على البَعثِ.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25).

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ.

أي: ومِن العلاماتِ الدَّالَّةِ على قُدرةِ اللهِ وغيرِها: قيامُ السَّماءِ والأرضِ بقُدرتِه وتدبيرِه؛ خُضوعًا وطاعةً لأمرِه لها.

كما قال تعالى: وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ [الحج: 65].

وقال سُبحانَه: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا [فاطر: 41].

ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ.

أي: ثمَّ إذا دعاكم اللهُ دَعوةً واحِدةً وأنتم مَوتى في بَطنِ الأرضِ، إذا أنتم سَريعًا تَخرُجونَ أحياءً مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ.

كما قال تعالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء: 52].

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26).

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ولله وَحْدَه ملْكُ مَنْ في السَّمَوات والأرضِ مِن الملائكةِ والإنسِ والجِنّ وجَميعِ المخلوقاتِ؛ فكُلُّهم عَبيدُه ومماليكُه.

كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ.

أي: كُلُّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن خَلْقِ اللهِ خاضِعونَ للهِ وَحْدَه؛ فَهُم له أذِلَّاءُ مَقهورونَ لإرادتِه الكَونيَّةِ، فيَتصَرَّفُ فيهم بما يَشاءُ.(35)

(35) اختلف في معنى: ﴿كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ﴾ من جهة أن ظاهرها العموم، وأن أكثر الجن والإنس لله عاصون، على ثلاثة أقوال:

الأول: أن ظاهرها العموم والمراد بها الخصوص، والمعنى: كل له قانتون في الحياة والبقاء والموت، والفناء والبعث والنشور، لا يمتنع عليه شيءٌ من ذلك، وإن عصاه بعضهم من غير ذلك.

الثاني: أن المعنى: كل له قانتون بإقرارهم أنه ربهم وخالقهم.

الثالث: هي على الخصوص، والمعنى: وله من في السماوات والأرض، من مَلِكٍ وعبْد مؤمنٍ لله مطيع دون غيرهم.

ووجَّه ابنُ عطية (٧/ ٢٠) القول الأول بقوله: «فكأنه قال: كلٌّ له قانتون في معظم الأمور وفي غالب الشأن».

ورجَّح ابنُ جرير (١٨/ ٤٨٤ – ٤٨٥) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الأول، وهو قول ابن عباس، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن العصاة مِن خلْقه فيما لهم السبيل إلى اكتسابه كثيرٌ عددهم، وقد أخبر –تعالى ذِكْره– عن جميعهم أنهم له قانتون، فغير جائزٍ أن يُخْبِر عمَّن هو عاصٍ أنه له قانتٌ فيما هو له عاصٍ».

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (484/18، 485)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (215/1)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (127/1)، ((تفسير ابن كثير)) (311/6)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (76/15)، ((تفسير السعدي)) (ص: 640)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 142، 143).

قال ابنُ جرير: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ القَولُ الَّذي ذكَرْناه عن ابنِ عبَّاسٍ: وهو أنَّ كُلَّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن خَلقِ الله: مُطيعٌ في تصَرُّفِه فيما أراد تعالى ذِكرُه من حياةٍ وموتٍ، وما أشبَهَ ذلك، وإنْ عصاه فيما يَكتسِبُه بقُواهُ، وفيما له السَّبيلُ إلى اختيارِه، وإيثارِه على خِلافِه).

((تفسير ابن جرير)) (484/18، 485).

وقال ابنُ القيِّم: (القنوتُ هنا هو العبوديَّةُ العامَّةُ الَّتي يشتَرِكُ فيها أهلُ السَّمَواتِ والأرضِ، لا يختَصُّ بها بعضُهم عن بعضٍ، ولا يختَصُّ بزَمانٍ دونَ زمانٍ، وهي عبوديَّةُ القَهرِ؛ فالقُنوتُ هنا قُنوتُ قَهرٍ وذُلٍّ، لا قُنوتُ طاعةٍ ومحبَّةٍ).

((بدائع الفوائد)) (215/1).

وقال ابن كثير: (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ أي: خاضِعونَ خاشِعونَ، طَوعًا وكَرهًا).

((تفسير ابن كثير)) (311/6).

كما قال تعالى: وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا [آل عمران: 83].

وقال سُبحانَه: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ [الرعد: 15].

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27).

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ.

أي: واللهُ هو الَّذي يَبدأُ إنشاءَ الخَلقِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُهم بعدَ مَوتِهم فيُحييهم ثانيةً.

وقال ابنُ عاشور: (ظاهِرُ معنى القُنوتِ: امتِثالُ الأمرِ، فيجوزُ أن يكونَ المعنى: أنَّهم مُنقادون لأمرِه، وإذ قد كان في العُقَلاءِ عُصاةٌ كثيرونَ، تعَيَّنَ تأويلُ القُنوتِ باستعمالِه في الامتِثالِ لأمرِ التَّكوينِ، أو في الشَّهادةِ لله بالوحدانيَّةِ بدَلالةِ الحالِ، وهذا هو المقصودُ هنا...

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ تكمِلةً لجُملةِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ [الروم: 25] على معنى: وله يومَئذٍ مَن في السَّمواتِ والأرضِ كُلٌّ له قانِتونَ، فالقُنوتُ بمعنى الامتثالِ الواقِعِ في ذلك اليومِ، وهو امتِثالُ الخُضوعِ؛ لأنَّ امتثالَ التَّكليفِ قد انقضى بانقِضاءِ الدُّنيا، أي: لا يَسَعُهم إلَّا الخضوعُ فيما يأمُرُ اللهُ به مِن شأنِهم يومَ تَشهَدُ عليهم ألسِنَتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يعمَلونَ).

((تفسير ابن عاشور)) (21/82، 83).

وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.

أي: وإعادةُ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم أيسَرُ[36] على اللهِ مِن ابتِداءِ خَلْقِهم.[37]

---

(36) اختلَف المفسِّرونَ هنا في المرادِ بقولِه تعالى: أَهْوَنُ؛ فقيل: أَهْوَنُ بمعنى: هَيِّن، أي: الإعادةُ هَيِّنةٌ عليه؛ لأنَّه ليس شَيءٌ أهوَنَ على اللهِ مِن شَيءٍ، فالكُلُّ هَيِّنٌ عليه، وهو عندَه سَواءٌ.

وممَّن قال بذلك: القرطبي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (21/14)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (447/5).

وهذا بِناءً على أنَّ صيغةَ التَّفضيلِ قد تُطلقُ في القرآنِ واللُّغةِ مرادًا بها الاتِّصافُ، لا تفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ.

يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: 258 – 261).

وقيل: هو اسمُ تَفضيلٍ، والمرادُ: أهوَنُ عليه باعتبارِ المفهومِ لدى المخاطَبينَ، فمِنَ المتقَرِّر لدى النَّاسِ أنَّ إعادةَ الشَّيءِ أسهَلُ مِن ابتِدائِه.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، والسعدي، واستحسنه ابن عثيمين.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (76/15)، ((تفسير السعدي)) (ص: 640)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 146، 147).

(37) اختلف في معنى: ﴿وهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ على أقوال: الأول: وهو هيّنٌ عليه.

الثاني: وهو أيسر عليه.

الثالث: أن الضمير في ﴿عليه﴾ عائد على ﴿الخلق﴾، أي: والعود أهون على الخلق، بمعنى: أسرع.

وعلَّق ابنُ عطية (٧/ ٢٢) على القول الثاني بقوله: «وإن كان الكلّ من اليُسْر عليه في حيّز واحد وحالٍ متماثلة».

ثم ذكر بأن هذا التفضيل بحسب معتقدات البشر، وعلَّق على القولين الأولين بقوله: «وهذان القولان الضميران فيهما عائدان على الله –تبارك وتعالى–»، ووجَّههما بقوله: «وعلى التأويلين الأولين يصح أن يكون المخلوق، أو يكون مصدرًا من: خَلَقَ».

وعلَّق على القول الثالث بقوله: «فهو بمعنى: المخلوق فقط».

ثم نقل فيه عن بعضهم بأن المعنى: «وهو أهون على المخلوق أن يعيد شيئًا بعد إنشائه، فهذا عُرْف المخلوقين، فكيف تنكرون أنتم الإعادة في جانب الخالق».

ثم رجَّح مستندًا إلى السياق عود الضمير على الله تعالى، فقال: «والأظهر عندي عود الضمير على الله تعالى، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ولَهُ المَثَلُ الأَعْلَى﴾».

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((قال اللهُ: كَذَّبَني ابنُ آدَمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشَتَمَني ولم يكُنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقَولُه: لن يُعيدَني كما بدَأَني! وليس أوَّلُ الخَلْقِ بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه. وأمَّا شَتْمُه إيَّايَ فقَولُه: اتَّخَذ اللهُ ولَدًا! وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لم ألِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكُنْ لي كُفُئًا أحَدٌ)). [38]

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: واللهُ وَحْدَه هو المُستَحِقُّ للوَصفِ الأكمَلِ في السَّمَواتِ والأرضِ؛ فلا إلهَ إلَّا هو، وليس كمِثْلِه شَيءٌ، وكُلُّ صِفةِ كَمالٍ في المخلوقاتِ فالخالِقُ أحَقُّ بالاتِّصافِ بها على وَجهٍ لا يُشارِكُه فيها أحَدٌ، وكلُّ صِفةِ نَقصٍ في المخلوقِ فتَنزيهُ الخالِقِ عنها أَولى وأحرى، لا يدخُلُ السُّوءُ في أسمائِه، ولا النَّقصُ والعَيبُ في صفاتِه، ولا العَبَثُ والجَورُ في أفعالِه.

---

(38) رواه البخاري (4974).

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أي: واللهُ ذو العِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ لخَلقِه فلا يُغالَبُ، المنتَقِمُ مِن أعدائِه فلا يُمانَعُ، وهو الحَكيمُ في أفعالِه وأقوالِه؛ شَرعًا وقَدَرًا، ومِن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلْقِه، وتَصريفِهم فيما أرادَه بهم مِن إحياءٍ وإماتةٍ، وبَعثٍ ونُشورٍ.

سورةُ الرُّومِ

الآيتان (28–29)

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29)

تَفسيرُ الآيتينِ:

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28).

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ.

أي: مثَّل اللهُ لكم قُبحَ الشِّركِ وبُطلانَه لأجْلِ إفهامِكم -أيُّها المُشرِكونَ- بمَثَلٍ تَعرِفونَه؛ لِكَونِه مأخوذًا مِن أحوالِكم.

هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ.

أي: هل مِن رَقيقِكم الَّذين تَملِكونَهم -مَعْشَرَ المُشرِكينَ الأحرارِ- مَن يُشارِكُكم فيما أعطَيْناكم مِنَ الرِّزقِ، فتَكونوا أنتم وهم فيه مُتساوِينَ، تَخافونَهم مِنَ التَّصرُّفِ فيه كما يَخافُ الرَّجُلُ الحُرُّ منكم شَريكَه الحُرَّ أن يَتصرَّفَ في مالِهما بشَيءٍ دونَ رِضاه أو إذنِه، أو بما فيه ضَرَرٌ عليه؟! هذا لا يكونُ، فكما لا يَرضى أحَدٌ منكم أن يكونَ عَبيدُه شُرَكاءَ له في رِزقِه، فاللهُ لا يَرضى أن يكونَ له شَريكٌ مِن عَبيدِه في عبادتِه.[39]

---

(39) اختلف في معنى: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: تخافون هؤلاء الشركاء مما ملكت أيمانكم أن يرثوكم أموالكم كما يرث بعضكم بعضًا.

كما قال تعالى: وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ [النحل: 71].

كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

أي: مِثْلَ ذلك التَّفصيلِ والتبيينِ نُفَصِّلُ آياتِ القُرآنِ؛ لِيَتبَيَّنَ الحَقُّ لِقَومٍ ذَوي عَقلٍ وفَهمٍ.

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29).

الثاني: تخافون أن يُقاسِموا أموالكم كما يُقاسِم بعضكم بعضًا.

ورجَّح ابنُ جرير (١٨/ ٤٩١) مستندًا إلى ظاهر الآية ودلالة العقل القولَ الثاني، وهو قول أبي مجلز، وعلَّل ذلك بقوله: «وذلك أن الله –جلَّ ثناؤه– وبَّخ هؤلاء المشركين في الذين جعلوا له مِن خلقه آلهةً يعبدونها، وأشركوهم في عبادتهم إيّاه، وهم مع ذلك يُقِرُّون بأنها خَلْقُه وهم عبيده، وعيَّرهم بفعلهم ذلك، فقال لهم: هل لكم من عبيدكم شركاء فيما خوَّلناكم من نعمنا، فهم سواءٌ وأنتم في ذلك، تخافون أن يقاسموكم ذلك المال الذي هو بينكم وبينهم، كخيفة بعضكم بعضًا أن يقاسمه ما بينه وبينه من المال شركةً؟! فالخيفة التي ذكرها –تعالى ذِكْرُه– بأن تكون خيفة مما يخاف الشريك من مقاسمة شريكه المال الذي بينهما إياه، أشبه من أن تكون خيفة منه بأن يَرِثه؛ لأنّ ذِكْرَ الشركة لا يدل على خيفة الوراثة، وقد يدل على خيفة الفراق والمقاسمة».

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

أي: لم يَعقِلْ أولئك الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ آياتِ القُرآنِ المُفصَّلةَ، فيتَّبِعوها، وإنَّما اتَّبَعوا أهواءَهم؛ جَهلًا منهم بالحَقِّ، ودونَ برهانٍ لديهم على صِحَّةِ شِركِهم.

كما قال تعالى: فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ [القصص: 50].

فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ.

أي: فلا أحَدَ يُوفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن قدَّرَ اللهُ إضلالَه بسَبَبِ ظُلمِه.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [الأنعام: 144].

وقال سُبحانَه: وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ [إبراهيم: 27].

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.

أي: وليس لِلَّذينَ أضَلَّهم اللهُ مِن ناصِرينَ يُنقِذونَهم مِن عَذابِ اللهِ، أو يَهدونَهم مِن الضَّلالِ.

سورةُ الرُّومِ

الآيات (30–32)

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

غَريبُ الكَلِماتِ:

حَنِيفًا: أي: مُقبِلًا على عبادةِ اللهِ، مائِلًا عن الشِّرْكِ، والحنفُ: ميلٌ في إبهامَيِ القدَمَينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها، وأصلُ (حنف): يدُلُّ على مَيلٍ.

فِطْرَةَ: أي: خِلْقةَ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه.

الْقَيِّمُ: أي: المُستقيمُ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ.

مُنِيبِينَ: أي: تائِبينَ راجِعِينَ إلى اللهِ مُقْبِلِينَ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليه.

شِيَعًا: أي: فِرَقًا وأحزابًا مُختَلِفينَ، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ.

حِزْبٍ: أي: شيعةٍ وفِرقةٍ، يُقالُ: تحزَّب القومُ: اجتمَعوا، وأصلُ (حزب): تجَمُّعُ الشَّيءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30).

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا.

أي: فانصِبْ -يا محمَّدُ- قَلْبَك وقَصْدَك كُلَّه إلى جِهةِ الإسلامِ الَّذي شَرَعه اللهُ لك، واستَمِرَّ عليه، واجتَهِدْ في طَلَبِه واتِّباعِه، مُقبِلًا على عبادةِ اللهِ وَحْدَه، مائِلًا عن الشِّركِ وعن جميعِ الأديانِ الباطِلةِ، والفِرَقِ المُبتَدِعةِ.

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 79].

فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا.

أي: دينَ اللهِ:(40) الإسلامَ الَّذي خلَق جميعَ الناسِ مُهَيَّئِينَ لِمَعرفتِه وقَبولِه، والتَّصديقِ والإقرارِ بعَقائدِه، والانقيادِ إليه، والعَمَلِ بأحكامِه، وقد جعَل اللهُ تعاليمَه مُناسِبةً لخِلقتِهم، غيرَ مُخالِفةٍ لها.(41)

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((ما مِن مَولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطْرةِ، فأبَواه يُهَوِّدانِه ويُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه، كما تُنتَجُ البَهيمةُ بَهيمةً جَمعاءَ،(42) هل تُحِسُّونَ فيها مِن

---

(40) قيل: المعنى: اتَّبِعْ فِطرةَ الله؛ لأنَّ معنى فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ: اتَّبِعِ الدِّينَ، واتَّبِعْ فِطرةَ الله.
وقيل: هي مصدرٌ مِن معنى فَأَقِمْ وَجْهَكَ؛ لأنَّ معنى ذلك: فطَرَ اللهُ النَّاسَ على الدِّينِ.
وقيل: المعنى: الزَموا فِطرةَ الله، أو عليكم فِطرةَ الله.
يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (258/4).
ذهب ابنُ عطية (٧/ ٢٣، ٢٤) في معنى «الفطرة» إلى أن «الذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها: الخِلْقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي مُعدَّة مُهَيَّأة لأن يُميِّز بها مصنوعات الله تعالى، ويَستدل بها على ربه جَلَّ وعلا، ويعرف شرائعه، ويؤمن به».
ووجَّه معنى الآية عليه بقوله: «فكأنه تعالى قال: أقم وجْهك لِلدِّينِ الذي هو الحنيف، وهو فِطْرَة اللهِ الذي على الإعداد له فطر البشر».
ثم علَّق بقوله: «لكن تعرضهم العوارض، ومنه قول النبي – ﷺ –: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه ...» الحديث، وذِكْرُ الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة».
وذكر ابنُ عطية اختلافًا في «الفطرة»، فقال: «واختلف الناس في» الفطرة «ها هنا، فذكر مكيٌّ وغيرُه في ذلك جميعَ ما يمكن أن تصرف هذه اللفظة عليه».
وعلَّق بقوله: «وفي بعض ذلك قلق».
(41) قال ابنُ عبد البَرِّ: (أجمَعوا في قولِ الله عزَّ وجلَّ: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا على أنْ قالوا: فِطرةُ الله: دِينُ اللهِ؛ الإسلامُ).
((التمهيد)) (72/18).
(42) الجمعاءُ مِن البهائِمِ: الَّتي لم يذهَبْ مِن بدَنِها شَيءٌ.

جدْعاءَ؟!(43) ثمَّ يقولُ أبو هُريرةَ رَضيَ الله عنه: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)).(44)

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال ذاتَ يومٍ في خُطبتِه: ((ألَا إنَّ رَبِّي أمَرَني أنْ أُعَلِّمَكم ما جهِلْتُم ممَّا علَّمَني يومي هذا: كُلُّ مالٍ نَحَلْتُه(45) عبدًا حَلالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عِبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشَّياطينُ فاجتالَتْهم(46) عن دينِهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنزِّلْ به سُلْطانًا)).(47)

يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (459/20).

(43) جَدْعاءَ: أي: مقطوعةَ الأطرافِ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (247/1).

(44) رواه البخاري (1359) واللفظ له، ومسلم (2658).

(45) نحَلْتُه: أعطَيْتُه، والنِّحْلةُ: العَطيَّةُ.

يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) للمازَري (711/6).

(46) فاجْتَالَتْهم: أي: استخَفَّتْهم فجالوا معهم في الضَّلال؛ يُقال: جالَ واجتالَ: إذا ذهَب وجاءَ، ومنه الجَوَلانُ في الحَربِ، واجتالَ الشَّيءَ: إذا ذَهَب به وساقَه، والجائلُ: الزَّائلُ عن مَكانِه.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (317/1).

(47) رواه مسلم (2865).

لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ.

أي: لا يُخلَقُ الخَلْقُ على غيرِ الفِطرةِ؛ فالله تعالى سَوَّى بينَ جَميعِ خَلْقِه في الفِطرةِ على الجِبلَّةِ المُستَقيمةِ والتهَيُّؤِ لِقَبولِ دينِه، لا يُولَدُ أحدٌ إلَّا على ذلك.(48)

(48) وجَّه ابنُ عطية (٧/ ٢٤) قول سعيد بن جبير وما في معناه بقوله: «وهذا معناه: لا تبديل للمعتقدات التي هي في الدين الحنيف، فإن كل شريعة هي عقائدها».

يعني: أن كل شريعة من شرائع الأنبياء عقائدها هي عقائد الأخرى لا تختلف.

ثم ذكر في معنى الآية احتمالين: الأول: «أن يريد بها: هذه الفطرة المذكورة».

ووجَّهه بقوله: «أي: اعلم أن هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق، ولا يجيء الأمر على خلافها بوجه».

والثاني: «أن يكون قوله: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ إنحاءً على الكفرة، واعترض به أثناء الكلام».

ووجَّهه بقوله: «كأنه يقول: أقِم وجهك للدين الذي مِن صفته كذا وكذا، فإن هؤلاء الكفار الذين خلق الله لهم الكفر، ولا تبديل لخلق الله، أي: أنهم لا يفلحون».

ورجَّح ابنُ تيمية (٥/ ١٦١) مستندًا إلى ظاهر اللفظ أنّ قوله تعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ خبرٌ على ظاهره بأنّ خلق الله لا يُبَدِّله أحد، وأنّ هذا أصحُّ مِمَّن جعل معناه النهي، فلا يجعل نهيًا بغير حجة.

ذكر ابنُ القيم (٢/ ٣١٢) قولين في معنى: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾: الأول: لا تبديل لدين الله.

الثاني: هو الخصاء.

ثم جمع بينهما بقوله: «ولا منافاة بين القولين، كما قال تعالى: ﴿ولَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأَنْعامِ ولَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]، فتغيير ما فطر الله عباده من الدين تغيير لخلقه، والخصا وقطع آذان الأنعام تغيير لخلقه أيضًا، ولهذا شبه النبي - ﷺ - أحدهما بالآخر؛ فأولئك يغيرون الشريعة، وهؤلاء يغيرون الخلقة، فذلك يغير ما خلقت عليه نفسه وروحه، وهذا يغير ما خلق عليه بدنه».

ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ.

أي: إقامةُ الوَجهِ للإسلامِ الَّذي شَرَعَه اللهُ بلا تَغييرٍ، وطاعةُ اللهِ بلا شِركٍ: هو الدِّينُ الكامِلُ الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا نَقْصَ؛ فهو الطَّريقُ المُستَقيمُ السَّالِمُ مِن الانحِرافاتِ والضَّلالاتِ، الموصِلُ إلى اللهِ ورِضوانِه وجَنَّتِه.

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ الدِّينَ الحَقَّ، فهم يُشرِكونَ باللهِ، ويتَّبِعونَ غيرَ ما شَرَعه اللهُ.

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31).

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ.

أي: راجِعينَ إلى اللهِ وَحْدَه؛ مِنَ الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، ومِنَ المَعصيةِ إلى الطَّاعةِ، ومِنَ البِدَعِ والضَّلالاتِ إلى التَّمَسُّكِ بالشَّرعِ.

وَاتَّقُوهُ.

أي: واجعَلوا بيْنَكم وبينَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه حاجِزًا؛ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ.

أي: وأدُّوا الصَّلَواتِ على وَجْهِها التَّامِّ؛ بالمحافَظةِ على أركانِها وواجِباتِها، وغَيرِ ذلك.

وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

أي: ولا تَكونوا ممَّن يَدخُلُ في عِدادِ المُشرِكينَ بأن تَعمَلوا بمِثلِ ما يَعمَلونَ.

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32).

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ.

أي: لا تَكونوا مِنَ المُشرِكينَ الَّذين بدَّلوا دينَ اللهِ الَّذي فطَرَ العِبادَ عليه، وشَرَعَه لهم، فلم يَلتَزِموا به مِثْلَما أمَرَهم ربُّهم.

كما قال تعالى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران: 105].

وقال سُبحانَه: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [الأنعام: 159].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى [النساء: 115].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((تفرَّقَت اليَهودُ على إحدى وسَبعينَ أو اثنتَينِ وسَبعينَ فِرقةً، والنَّصارى مِثلَ ذلك، وتفترِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسَبعينَ فِرقةً)).(49)

وَكَانُوا شِيَعًا.

أي: وكانوا فِرَقًا وأحزابًا، كُلُّ فِرقةٍ مِنهم تألَّفت وتحالَفت وتعَصَّبَت على نصرِ ما معها مِن الباطِلِ، ومُنابَذةِ ومُحاربةِ مَن خالَفَها.

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.

أي: أتْباعُ كُلِّ طائفةٍ وفِرقةٍ منهم مُبتَهِجونَ ومُعجَبونَ بما تحالَفوا وتآلَفوا عليه مِنَ الضَّلالاتِ، يَحسَبونَ أنَّهم على الحَقِّ دونَ غَيرِهم!

---

(49) أخرجه أبو داود (4596)، والترمذي (2640) واللفظ له، وابن ماجه (3991)، وأحمد (8396).
قال الترمذي: حسَنٌ صحيحٌ.
وكذا قال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2640).
وقال الشوكاني في ((الفتح الرباني)) (206/1): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ.
وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (169/16).

كما قال تعالى: وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ [المؤمنون: 52 – 54].

وقال عزَّ وجَلَّ: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [فاطر: 8].

سورةُ الرُّومِ

لآيات (33–37)

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا
فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

ضُرٌّ: أي: فقرٌ وقحطٌ وسُوءُ حالٍ، وأشباهُ ذلك، وأصلُ (ضرر) هنا: خلافُ النَّفعِ.

سُلْطَانًا: أي: حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّيَ السُّلطانُ سُلطانًا.

يَقْنَطُونَ: أي: يَيْأسُونَ مِنَ الفَرَجِ، والقُنُوطُ هو: الإِياسُ مِن الخيرِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأْسِ مِنَ الشَّيءِ.

يَبْسُطُ: أي: يُوسِّعُ ويُكثِّرُ، وأصلُ (بسط): امْتِدادُ الشَّيءِ.

وَيَقْدِرُ: أي: يُضَيِّقُ، يُقالُ: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: إذا ضيَّقته، كأنَّما جعَلْتَه بقَدْرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33).

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ.

أي: وإذا أصاب النَّاسَ ضَرَرٌ، كمَرَضٍ في أبدانِهم، أو قِلَّةٍ في أموالِهم، أو قَحطٍ وشِدَّةٍ في مَعيشتِهم؛ أخلَصوا الدُّعاءَ للهِ مُقبِلينَ عليه وَحْدَه، تائِبينَ مِنَ الشِّركِ؛ لِعِلْمِهم أنَّه لا يَكشِفُ الضُرَّ إلَّا اللهُ.

كما قال تعالى: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ [فصلت: 51].

ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ.

أي: ثمَّ إذا رَحِمَهم اللهُ فكَشَفَ ما أصابَهم مِنَ الضُّرِّ، وأصابَهم بنِعمةٍ منه، كعافيةٍ أو سَعةِ رِزقٍ وغيرِ ذلك؛ إذا جماعةٌ منهم يُبادِرونَ بنَقضِ تلك الإنابةِ الصَّادرةِ منهم، فيُشرِكونَ معه غَيرَه في عبادتِه، ولا يَشكُرونَه على نِعَمِه!

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34).

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ.

أي: يُشرِكونَ لِيَكفُروا[50] بما[51] أعطَيْناهم مِنَ النِّعَمِ، وصَرَفْنا عنهم مِنَ النِّقَمِ!

---

(50) قال ابن كثير: (قَولُه: لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ اللَّامُ هي لامُ العاقبةِ عند بَعضِهم، ولامُ التَّعليلِ عندَ آخَرينَ، ولكنَّها تعليلٌ لِتَقييضِ اللهِ لهم ذلك).

((تفسير ابن كثير)) (317/6).

وممَّن قال بأنَّها للعاقبةِ: السمعانيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (179/3) (214/4)، ((تفسير البيضاوي)) (207/4)، ((تفسير أبي السعود)) (61/7)، ((تفسير القاسمي)) (15/8)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 205).

وممَّن اختار أنَّها لامُ كَيْ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عطية، والنسفي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (414/3)، ((تفسير ابن عطية)) (337/4)، ((تفسير النسفي)) (701/2)، ((تفسير الشوكاني)) (260/4).

وقيل: يجوزُ أن تكونَ لامَ الأمرِ، ومعناه التَّهديدُ، نحو: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ [فصلت:40] .

وممَّن اختاره: مكِّي، وابنُ الجوزي، وابنُ جُزَي.

يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5690/9)، ((تفسير ابن الجوزي)) (413/3، 424)، ((تفسير ابن جزي)) (428/1، 429) و(134/2).

ويُنظر أيضًا: ((الدر المصون)) للحلبي (46/9).

(51) قيل: المعنى: أنَّهم يَكفُرون بهذا الَّذي آتَيْناهم، فيَجحَدونه ولا يَشكُرونه.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (499/18)، ((تفسير ابن عاشور)) (98/21).

وقيل: الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: لِيَكفُروا بسَبَبِ ما آتَيْناهم مِنَ الرَّحمةِ، والإنقاذِ مِنَ الشِّدَّةِ، فصار ذلك سببًا لِكُفرِهم.

ذكَرَ هذا المعنى احتمالًا: ابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 205).

فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.

أي: فتمتَّعوا -أيُّها المُشرِكونَ- مُدَّةَ حياتِكم بما أعطاكم اللهُ مِنَ النِّعَمِ، فسوفَ تَعلَمونَ ما ستَلقَونَه مِنَ العذابِ يومَ القيامةِ.

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35).

أي: فهل أنزَلْنا على المُشرِكينَ حُجَّةً ظاهِرةً تَشهَدُ بصِحَّةِ شِركِهم، حتَّى يُوجِبَ لهم ذلك شِدَّةَ التَّشبُّثِ بالشِّركِ؟!

كما قال تعالى: أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [الصافات: 156، 157].

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36).

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا.

أي: وإذا أصَبْنا النَّاسَ برَحمةٍ، كحُصولِ الخِصْبِ والعافيةِ، فَرِحوا بذلك.

وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ.

أي: وإنْ تُصِبْهم حالٌ تَسوؤُهم -كقِلَّةٍ في أموالِهم، أو شِدَّةٍ في مَعيشَتِهم- بسَبَبِ ذُنوبِهم، أصابَهم يأسٌ شديدٌ مِن حُصولِ الرَّحمةِ والفَرَجِ، وزوالِ تلك الحالِ.

كما قال تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [الشورى: 30].

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37).

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ.

أي: أوَلم يَرَ هؤلاءِ الَّذين يفرَحونَ عندَ الرَّخاءِ، وييْئَسونَ عندَ الشِّدَّةِ أنَّ اللهَ يُوَسِّعُ الرِّزق لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ؟ فهو وَحْدَه المتصَرِّفُ في عبادِه بحِكمتِه؛ فيُغْني مَن يَشاءُ، ويُفقِرُ مَن يَشاءُ!

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

أي: إنَّ في تَوسيعِ اللهِ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ وتَضييقِه على مَن يَشاءُ لَدَلائِلَ وعَلاماتٍ للمُؤمِنينَ، يَستَدِلُّونَ بها على رَحمةِ اللهِ وحِكمتِه، وكَمالِ قُدرتِه، وغَيرِ ذلك.

سورةُ الرُّومِ

الآيات (38-40)

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38) وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

لِيَرْبُوَ: أي: لِيَزدادَ، وأصلُ الرِّبا: الزِّيادةُ.

الْمُضْعِفُونَ: أي: ذَوُو المُضاعَفةِ والزِّيادةِ مِنَ الحَسَناتِ، وأصلُ (ضعف): يدُلُّ على أن يُزادَ الشَّيءُ مِثلَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

فَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38).

فَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ.

أي: فآتِ قريبَك حقَّه مِنَ البِرِّ والصِّلةِ، والمِسكينَ حَقَّه مِنَ الصَّدَقةِ، والمسافِرَ المُنقَطِعَ حَقَّه مِنَ الإعانةِ على سَفَرِه.

ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ.

أي: إيتاءُ الأقاربِ والمساكِينِ وأبناءِ السَّبيلِ حُقوقَهم الشَّرعيَّةَ خَيرٌ للمُخلِصينَ الذين يُريدونَ بذلك وجهَ اللهِ.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

أي: وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخِرةِ.

وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39).

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ.

أي: وما آتَيتم -أيُّها النَّاسُ- مِن عَطاءٍ تُريدونَ به زيادةً وأرباحًا تَحصُلُ لكم مِن أموالِ النَّاسِ، بأن يَرُدُّوه إليكم بأكثَرَ مِمَّا آتيتُموه؛ فلا يَزْكو ويَنمو عندَ اللهِ؛ فهو مالٌ مَمْحوقُ البَرَكةِ، ولا ثوابَ فيه.(52)

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ.

أي: وما آتيتُم مِن زكاةٍ عن إخلاصٍ لله تعالى، تريدونَ بها وجهَه؛ فأولئك هم الذين يُضاعِفُ اللهُ لهم ثوابَ صَدَقاتِهم.

كما قال تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً [البقرة: 245].

---

(52) اختلف السلف في معنى الآية على أقوال: الأول: أنه الرجل يهدي هدية ليكافأ عليها أفضل منها.
الثاني: أنه في رجل صحبه في الطريق فخدمه، فجعل له المخدوم بعض الربح من ماله جزاء لخدمته، لا لوجه الله.
الثالث: أنه في رجل يهب لذي قرابة له مالًا ليصير به غنيًّا ذا مال، ولا يفعله طلبًا لثواب الله.
الرابع: أن ذلك للنبي - ﷺ - خاصة، وأما لغيره فحلال.
وقد رجّح ابنُ جرير (١٨/ ٥٠٦) مستندًا إلى الأظهر من معاني اللفظ القول الأول، وعلَّل ذلك بقوله: «وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في ذلك لأنه أظهر معانيه».
وعلّق ابنُ عطية (٧/ ٢٨) على القول الأول، فقال: «قال ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وطاووس: هذه آية نزلت في هبات الثواب، وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه؛ كالسلام وغيره، فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى».
وذكر القولين الآخرين، وبيّن قربهما من القول الأول بقوله: «وهذا كله قريب وجزء من التأويل».
ثم ذكر في الآية احتمالًا غير ما ذُكِرَ، فقال: «ويحتمل أن يكون معنى هذه الآية النهي عن الربا في التجارات، لَمّا حض - عز وجل - على نفع ذوي القربى والمساكين وابن السبيل؛ أعْلَمَ أن ما فعل المرءُ مِن ربًا ليزداد به مالًا -وفعله ذلك إنما هو في أموال الناس- فإنّ ذلك لا يربو عند الله ولا يزكو، بل يتعلق فيه الإثم ومحق البركة».

وقال سُبحانَه: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [البقرة: 261].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((ما تصدَّقَ أحَدٌ بصَدقةٍ مِن طَيِّبٍ – ولا يقبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ– إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه وإن كانت تمرةً، فتَربو في كَفِّ الرَّحمنِ حتى تكونَ أعظَمَ مِن الجَبَلِ، كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه(53) أو فَصيلَه!))(54).(55)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40).

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خَلَقكم مِنَ العَدَمِ، ثمَّ رَزَقكم وأنتم لا تَملِكونَ شيئًا، ثمَّ يميتُكم مِن بعدِ حَياتِكم، ثمَّ يُحييكم للبَعثِ يومَ القيامةِ.

---

(53) الفَلُوُّ: المُهرُ، وهو الصَّغيرُ من أولادِ الفَرَسِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه فُصِلَ وعُزِلَ عن أمِّه.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (7/99).

(54) الفَصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِلَ مِن إرضاعِ أمِّه.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (7/99).

(55) رواه البخاري (1410) ومسلم (1014)، واللفظ له.

هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ.

أي: هل مِن آلهتِكم -أيُّها المُشرِكونَ- مَن يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن ذلك؟

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أي: تنزَّه اللهُ وتقدَّسَ وتعالى عن شِركِ هؤلاءِ المُشرِكينَ!

سورةُ الرُّومِ

الآيات (41-45)

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ (41) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُشْرِكِينَ (42) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ
يَصَّدَّعُونَ (43) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

الْقَيِّمِ: أي: المستقيمِ الَّذي لا عِوجَ فيه، وأصلُ (قوم) هنا: يدلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ.

يَصَّدَّعُونَ: أي: يتَفَرَّقونَ فيَصيرونَ فريقًا في الجنَّةِ وفريقًا في السَّعيرِ، وأصلُ (صدع): يدُلُّ على انفراجٍ في شَيءٍ.

يَمْهَدُونَ: أي: يُهَيِّئونَ ويُوطِّئونَ، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على توطئةٍ وتَسهيلٍ للشَّيءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41).

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ.

أي: ظَهَر نَقصُ الخَيراتِ، وفِقدانُ المنافعِ ومَحقُ البَرَكاتِ، وكَثرةُ الشُّرورِ وحُدوثُ المضارِّ والآفاتِ: في بَرِّ الأرضِ وبَحرِها؛ بسَبَبِ وُقوعِ النَّاسِ في الشِّركِ والكُفرِ والظُّلمِ، وارتكابِهم الذُّنوبَ والمعاصِيَ.[56]

---

(56) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر﴾ على أقوال: الأول: أن البر: هو الفيافي.

والبحر: القرى والأمصار.

الثاني: البر: أهل العمود.

والبحر: أهل القرى والريف.

الثالث: البر: ظهر الأرض؛ الأمصار وغيرها.

والبحر: هو البحر المعروف.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٨/ ٥١٢) مستندًا إلى اللغة قائلًا: «أن الله –تعالى ذِكْرُه– أخبر أنّ الفساد قد ظهر في البر والبحر، والبر عند العرب: الأرض القفار.

والبحر بحران: بحر ملح، وبحر عذب، وهما جميعًا عندهم بحر.

ولم يخصص –جل ثناؤه– الخبر عن ظهور ذلك في بحر دون بحر، فذلك على ما وقع عليه اسم بحر عذبًا كان أو ملحًا، وإذا كان ذلك كذلك دخل القرى التي على الأنهار والبحار».

ورجّح ابنُ عطية (٧/ ٣٠ – ٣١) القول الثالث مستندًا إلى الأشهر لغة، فقال: «وقال الحسن: البر والبحر هما المعروفان المشهوران في اللغة.

وهذا القول صحيح».

ورجّح ابنُ كثير (١١/ ٣٤) مستندًا إلى السنة القول الأول بقوله: «والقول الأول أظهر، وعليه الأكثر، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة: أن رسول الله – ﷺ – صالَحَ ملكَ أيلة، وكتب إليه ببحره، يعني: ببلده».

كما قال تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [الشورى: 30].

لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

أي: ابتلاهم اللهُ بنَقصِ الخيراتِ وغَيرِها مِن أنواعِ الفَسادِ؛ جزاءً لهم على بَعضِ ذُنوبِهم، لعلَّهم يتوبونَ إليه، ويَترُكونَ الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ.

كما قال تعالى: وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الأعراف: 168].

وقال سُبحانَه: وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [السجدة: 21].

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42).

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: سافِروا في الأرضِ، فانظُروا كيف كانت نهايةُ الأُمَمِ مِن قَبلِكم.

كما قال تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [الأنعام: 11].

كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ.

أي: كان أكثَرُ الأُمَمِ الماضيةِ مُشرِكينَ، فعاقِبَتُهم كانت شَرَّ العواقِبِ؛ إذ أهلَكَهم اللهُ؛ فاحذَروا أن تفعَلوا كأفعالِهم، فيُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43).

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ.

أي: فانصِبْ قَصْدَك، وأقبِلْ بقلبِك على دينِ الإسلامِ الذي جعَلَه اللهُ مُعتدِلًا مُستقيمًا لا اعوِجاجَ فيه، وبادِرْ إلى العَمَلِ بأوامِرِه واجتِنابِ نواهيه مِن قَبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الذي لا يُمكِنُ ردُّ مجيئِه.

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 79].

وقال سُبحانَه: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [الأنعام: 153].

يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ.

أي: يومَ القيامةِ يتفرَّقُ النَّاسُ فريقَينِ: فريقٌ في الجنَّةِ، وفريقٌ في النَّارِ.

كما قال تعالى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ [الروم: 14 – 16].

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44).

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ.

أي: مَن كفَرَ باللهِ فإنَّما وَبالُ كُفرِه واقِعٌ عليه، ولا يَضُرُّ بكُفرِه إلَّا نَفْسَه.

وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ.

أي: ومَن عَمِلَ عَمَلًا صالحًا بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابعةٍ لِشَرعِه، فإنَّما يُهَيِّئونَ لأنفُسِهم النَّجاةَ مِنَ النَّارِ، والفَوزَ بالجنَّةِ.

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45).

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ.

أي: لِيَجزيَ اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ ثوابًا حَسَنًا كريمًا مِن فَضْلِه.

كما قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافِرينَ به؛ بسَبَبِ كُفرِهم، وهو مُعاقِبُهم سُبحانَه بعَدلِه.

سورةُ الرُّومِ

الآيات (46-53)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49)

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ

الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

الْفُلْكُ: أي: السُّفنُ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ.

فَتُثِيرُ: أي: فتُنشِئُ، وأصلُ (ثور): يدُلُّ على انبِعاثِ الشَّيءِ.

فَيَبْسُطُهُ: أي: يَنشُرُه، والبَسطُ: النَّشرُ، وأصلُ (بسط): يَدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ.

كِسَفًا: أي: قِطَعًا، وأصلُ (كسف): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ.

الْوَدْقَ: أي: المطَرَ، وأصلُ (ودق): يدُلُّ على إتيانٍ؛ لأنَّ المطَرَ يَجيءُ مِنَ السَّماءِ.

لَمُبْلِسِينَ: أي: لَيائِسينَ، وأصْلُ (بلس): يدُلُّ على يأسٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46).

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعِلمِه ورَحمتِه، وحِكمتِه وكَمالِ قُدرتِه، وغَيرِ ذلك: أنْ يُرسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ لكم بحُصولِ ما فيه نَفعُكم، مِن نُزولِ المطَرِ أو غَيرِه.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ [الأعراف: 57].

وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ.

أي: ولِيُصيبَكم ببَعضِ نِعَمِه.

وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ.

أي: ولِتَسيرَ السُّفُنُ في البِحارِ عندَ هُبوبِها بأمرِ اللهِ لها، وتقديرِه وتَسخيرِه ذلك.

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ.

أي: ولِتَلتَمِسوا بالسَّيرِ في البَحرِ مِن رِزقِ اللهِ.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

أي: ولعلَّكم تَشكُرونَ رَبَّكم على تلك النِّعَمِ الإلهيَّةِ، فتَقومونَ بتَوحيدِه وطاعتِه سُبحانَه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ.

أي: ولقدْ أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا محمَّدُ- رُسُلًا إلى قَومِهم الكافِرينَ، فجاؤوهم بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ على صِدقِهم.

فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا.

أي: فأهلَكْنا الَّذين كَفَروا وكَذَّبوا بآياتي ورُسُلي؛ فكذلك نُهلِكُ مَن كَفَر وكَذَّب بالحَقِّ مِن قَومِك يا محمَّدُ.

كما قال تعالى: أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآَخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ [المرسلات: 16 – 18].

وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: ونجَّينا المؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه، وكان واجِبًا علينا ذلك؛ فحَقٌّ علينا أيضًا أن ننصُرَك –يا محمَّدُ– والمؤمِنينَ بك.

كما قال تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [غافر: 51].

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48).

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ.

أي: اللهُ وَحْدَه الذي يُرسِلُ الرِّياحَ مَرَّةً بعدَ أخرى، فتُحرِّكُ سَحابًا مِن سُكونِه وتُسَيِّرُه، فيَمُدُّه اللهُ ويَنشُرُه في السَّماءِ على الهيئةِ والصِّفةِ الَّتي يَشاؤُها سُبحانَه بحِكمتِه.

كما قال تعالى: وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا [فاطر: 9].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ [النور: 43].

وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا.

أي: ويجعَلُ اللهُ السَّحابَ قِطَعًا.(57)

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: كِسَفًا قراءتانِ:

1- قراءةُ كِسْفًا قيل: هي اسمٌ مُفردٌ بمعنى: قِطعةٍ واحِدةٍ، وقيل: هي جَمعُ كِسْفةٍ، فتكونُ كِسْفًا بمعنى: قِطَعًا، وهي معنى القراءةِ الثانيةِ.(58)

2- قِراءةُ كِسَفًا أي: قِطَعًا، جمعُ كِسْفةٍ، وهي القِطعةُ.(59)

---

(57) قال البقاعي: (كِسَفًا أي: قِطَعًا غيرَ متَّصِلٍ بَعضُها ببعضٍ اتِّصالًا يمنَعُ نزولَ الماءِ).
((نظم الدرر)) (119/15، 120).

وقال ابن عثيمين: (قال بعضُ المفَسِّرين: معنى كونِه كِسَفًا: أنَّه قِطَعٌ مُتراكِبةٌ بَعضُها فوقَ بعضٍ، حتَّى يَسْوَدَّ ويَدْلَهِمَّ ويحصُلَ فيه الرَّعدُ والبَرقُ، وهذا أَولى، وهو في الغالِبِ أكثَرُ مَطرًا).
((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: 308).

قال ابنُ كثير: (وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا قال مجاهدٌ، وأبو عمرِو بنُ العلاءِ، ومطرٌ الورَّاقُ، وقَتادةُ: يعني قِطَعًا.
وقال غيره: مُتراكِمًا، قاله الضَّحَّاكُ.
وقال غيره: أسوَدُ مِن كثرةِ الماءِ، تراه مُدْلَهِمًّا ثقيلًا قريبًا مِن الأرضِ).
((تفسير ابن كثير)) (322/6).

(58) قرأ بها هشامٌ بخُلفٍ عنه، وابن ذكوان، وأبو جعفر.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (309/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 220)، ((معاني القراءات)) للأزهري (100/2، 101)، ((الكشف)) لمكي (51/2، 52).

(59) قرأ بها الباقون، وهو الوجه الثاني لهشام.

فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ.

أي: فترى المطَرَ يَقطُرُ مِن بينِ السَّحابِ.

فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.

أي: فإذا أنزل اللهُ المطَرَ على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، تراهم يَفرَحونَ بنُزولِه.

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49).

أي: والحالُ أنَّهم قَبلَ نُزولِ المطَرِ عليهم كانوا حزينينَ يائِسينَ باحتِباسِه عنهم.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/309).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 220)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/100، 101)، ((الكشف)) لمكي (2/51).

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50).

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.

أي: فانظُرْ إلى آثارِ المطَرِ الَّذي رَحِمَ اللهُ به عِبادَه: كيف يُحيي به اللهُ الأرضَ اليابِسةَ، فيُنبِتُها بعدَ قُحوطِها وجُدوبِها؟

كما قال تعالى: وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [الحج: 5].

إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى.

أي: إنَّ اللهَ الَّذي أحيا الأرضَ الميِّتةَ بالمطَرِ، لَمُحْيي الموتى في الآخِرةِ بقُدرتِه.

كما قال تعالى: وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ [ق: 9 – 11].

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: واللهُ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا يُعجِزُه شَيءٌ سُبحانَه، ومِن ذلك: بعْثُ عِبادِه بعدَ مَوتِهم.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51).

أي: ولَئِنْ أرسَلْنا ريحًا مُفسِدةً للزَّرعِ، فرأى أصحابُ الزَّرعِ زرعَهم قد فَسَد بالرِّيحِ فاصفرَّ ويَبِسَ؛ لَظَلُّوا مِن بعدِ هذه الحالِ[60] يَكفُرونَ بربِّهم، فيَيئَسونَ مِن رَحمتِه، ويَجحَدونَ نِعَمَه سُبحانَه![61]

كما قال تعالى: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ [الواقعة: 63 – 67].

---

(60) قيل: المرادُ: مِن بعدِ اصفرارِ زَرعِهم بالرِّيحِ.

ومِمَّن قال بذلك: السمرقندي، وابن الجوزي، والبقاعي والعليمي والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (3/17)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/427)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/123)، ((تفسير العليمي)) (5/294)، ((تفسير القاسمي)) (8/20).

وقيل: المرادُ: مِن بعدِ استبشارِهم وفرحتِهم بزَرعِهم الأخضرِ قبلَ اصفرارِه.

ومِمَّن قال بذلك: ابن جرير، ومكي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/523)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (9/5702)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 327).

(61) وقيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا يعودُ إلى الرِّيحِ.

ومِمَّن قال بذلك: القرطبي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (14/45).

قال القرطبي: (الريحُ يجوزُ تذكيرُه.

قال مُحمَّدُ بنُ يزيدَ: لا يمتَنِعُ تذكيرُ كُلِّ مُؤنَّثٍ غيرِ حقيقيٍّ، نحو: أعجبَني الدَّارُ، وشِبهُه.

وقيل: فرأوا السَّحابَ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: الزَّرعَ، وهو الأثَرُ، والمعنى: فرَأَوُا الأثَرَ مُصفَرًّا، واصفِرارُ الزَّرعِ بعدَ اخضِرارِه يدُلُّ على يُبسِه، وكذا السَّحابُ يدُلُّ على أنَّه لا يُمطِرُ، والرِّيحُ على أنَّها لا تُلقِحُ).

((تفسير القرطبي)) (14/45).

ويُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (3/189).

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52).

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى.

أي: فإنَّك –يا محمَّدُ– لا تَستطيعُ أن تُسمِعَ هؤلاء الكُفَّارَ الَّذين ماتت قُلوبُهم سَماعًا ينتَفِعون به، إنْ لم يُرِدِ اللهُ أن يَهديَهم.[62]

كما قال سُبحانَه: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا [الأعراف: 179].

وقال تبارك وتعالى: إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ [فاطر: 22].

---

(62) قال ابنُ كثير (١١/ ٣٩ – ٤٠): «وقد استدلت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها –- بهذه الآية: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي – ﷺ – القتلى الذين ألقوا في القليب قليب بدر بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم، وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب مِن قوم قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون».

وتأولته عائشة على أنه قال: إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق.

وقال قتادة: أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعًا وتوبيخًا ونقمة.

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر؛ لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصحِّحًا له، عن ابن عباس مرفوعًا: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا، فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه، حتى يرد – عليه السلام –».

وثبت عنه – ﷺ – أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه، وقد شرع النبي – ﷺ – لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام مَن يخاطبونه فيقول المسلم: السلام عليكم دار قوم مؤمنين.

وهذا خطاب لِمَن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثارُ عنهم بأنّ الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر».

وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ.

أي: ولا تَقدِرُ –يا مُحمَّدُ– أن تُسمِعَ الحقَّ الكُفَّارَ الَّذين أصَمَّ اللهُ آذانَهم سَماعًا ينتَفِعونَ به، إذا أعرَضوا عن سَماعِ الحَقِّ وتدَبُّرِه.

كما قال تعالى: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [البقرة: 171].

وقال سُبحانَه: قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ [الأنبياء: 45].

وقال تبارك وتعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: 22، 23].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ يَسْمَعُ بفَتحِ الياءِ والميمِ، والصُّمُّ بالرَّفعِ فاعِلًا للفِعلِ، أي: لا يَنقادون للحَقّ كما لا يُجيبُ الأصَمُّ النِّداءَ الموَجَّهَ إليه.(63)

2- قراءةُ تُسْمِعُ بالتَّاءِ المضمومةِ وكَسرِ الميمِ، والصُّمَّ بالنَّصبِ مَفعولًا به، والخِطابُ لِرَسولِ اللهِ - ﷺ -، أي: إنَّك لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ دُعاءَك الصُّمَّ المعرِضينَ عنك.(64)

وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53).

وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ.

أي: وما أنت -يا مُحَمَّدُ- بهادِي الكُفَّارِ الَّذين أعمى اللهُ بصائِرَهم وقُلوبَهم عن الحَقّ؛ فتَصرِفَهم عن ضَلالِهم وكُفرِهم، وتَرُدَّهم إلى الإيمانِ.

---

(63) قرأ بها ابن كثير.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (339/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (524/18)، ((معاني القراءات)) للأزهري (245/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 536).

(64) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (239/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 536)، ((الكشف)) لمكي (110/2، 185).

إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ.

أي: ما تُسمِعُ –يا مُحمَّدُ– الحَقَّ سَماعَ انتِفاعٍ به إلَّا الَّذين يُؤمِنونَ بآياتِنا، فهم مُتذَلِّلونَ وخاضِعونَ لله، مُنقادونَ لطاعتِه سُبحانَه.

كما قال تعالى: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ [الأنعام: 36].

سورةُ الرُّومِ

الآيات (54–57)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

غَريبُ الكَلِماتِ:

يُؤْفَكُونَ: أي: يُصرَفون عن الحقّ، ويُصَدُّون عن الصوابِ، يُقالُ: أفَكَ الرَّجلُ عن كذا: إذا عدَل عنه، والإفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهِه الَّذي يحقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): قلْبُ الشَّيءِ، وصَرْفُه عن جهتِه.

يُسْتَعْتَبُونَ: أي: يُطلَبُ منهم أن يُزيلوا غَضَبَ رَبِّهم بالتَّوبةِ وصالحِ العَمَلِ؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجُوعُ عن الإساءةِ، والتَّعرُّضُ لِطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغضَبُ والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتَبَه: إذا أزالَ عنه عَتْبَه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا.

تَفسيرُ الآياتِ:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54).

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ.

أي: اللهُ الَّذي خلقَكم -أيُّها النَّاسُ- وابتدأ إنشاءَكم مِن ضَعفٍ.[65]

ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً.

أي: ثُمَّ جَعَلَ اللهُ لكم قُوَّةً مِن بَعدِ ضَعفِكم.

---

(65) قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: مِنْ ضَعْفٍ أي: مِن نُطفةٍ ضَعيفةٍ.

ومِمَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، والسمرقندي، والبغوي، والقرطبي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/420)، ((تفسير ابن جرير)) (18/525)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (4/191)، ((تفسير السمرقندي)) (3/18)، ((تفسير البغوي)) (3/582)، ((تفسير القرطبي)) (14/46).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/526).

وقيل: المرادُ: بدَأكم وأنشأكم على ضَعفٍ، وجعَلَ الخَلْقَ مِن ضَعفٍ؛ لكثرةِ ضَعفِ الإنسانِ أوَّلَ نشأتِه وطفوليَّتِه.

ومِمَّن اختاره في الجملةِ: الخازنُ، وأبو حيان، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير الخازن)) (3/394)، ((تفسير أبي حيان)) (8/401)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 336).

وذكر ابن عثيمين أنَّ هذا الضَّعفَ يَبتدئُ بعدَ نَفخِ الرُّوحِ في الجنينِ؛ إذا صار حيًّا في بطنِ أمِّه.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة الروم)) (ص: 336).

ومِمَّن جمَع بينَ القولينِ في الجملةِ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (2/135)، ((تفسير ابن كثير)) (6/327)، ((تفسير السعدي)) (ص: 644).

ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً.

أي: ثمَّ جَعَل اللهُ فيكم ضَعفًا مِن بَعدِ قُوَّتِكم، فتهرَمونَ وتَشيبونَ.

كما قال الله سبحانه وتعالى: وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا [النحل: 70].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ [يس: 68].

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ.

أي: يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ في عِبادِه مِن ضَعفٍ وقُوَّةٍ، ويتصَرَّفُ في خَلقِه بما يريدُ بحَسَبِ حِكمتِه سُبحانَه.

وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ.

أي: واللهُ هو العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بتدبيرِ عِبادِه، وهو القادِرُ على كُلِّ شَيءٍ.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55).

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ.

أي: ويومَ تأتي القيامةُ يُقسِمُ الكُفَّارُ بأنَّهم ما مَكَثوا مِن قَبْلُ غيرَ ساعةٍ واحِدةٍ.

كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ.

أي: كما كذَّبَ الكُفَّارُ وصُرِفوا عن الحَقِّ في قَسَمِهم بأنَّهم ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ، كانوا يُكَذِّبون ويُصرَفونَ عن الحَقِّ والصَّوابِ في الدُّنيا أيضًا، فذاك خُلُقٌ قَبيحٌ تخَلَّقوا به، فصار لهم سَجِيَّةً وطَبعًا.

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56).

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ.

أي: وقال أهلُ العِلمِ المُؤمِنونَ باللهِ[66] لأولئك الكُفَّارِ الكاذِبينَ: واللهِ لقد مكَثْتُم الوَقتَ الَّذي قدَّره اللهُ لكم وكَتَبه في اللَّوحِ المحفوظِ إلى يوم بَعثِكم، ولم تَلبَثوا ساعةً كما زعَمْتُم.[67]

---

(66) قال الشوكاني: (اختُلِفَ في تعيينِ هؤلاء الَّذين أُوتوا العِلمَ؛ فقيل: الملائكةُ.

وقيل: الأنبياءُ.

وقيل: عُلماءُ الأُمَمِ.

وقيل: مؤمِنو هذه الأمَّة.

ولا مانِعَ مِن الحَملِ على الجميعِ).

((تفسير الشوكاني)) (267/4).

قال ابنُ عطية (٧/ ٣٧): «وقال بعض المفسرين: إنما أراد: أوتوا الإيمان والعلم؛ ففي الكلام تقديم وتأخير.

[كما في رواية ابن جرير لقول قتادة].

ولا يُحتاج إلى هذا، بل ذكر العلم يتضمن الإيمان، ولا يصف الله بعلم من لم يعلم كل ما يوجب الإيمان، ثم ذكر الإيمان بعد ذلك تنبيهًا عليه وتشريفًا لأمره كما قال تعالى: ﴿فاكِهَةٌ ونَخْلٌ ورُمّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، فنبَّه على مكان الإيمان، وخصَّه بالذِّكر تشريفًا».

(67) قال البيضاوي: (لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ في عِلمِه أو قَضائِه، أو ما كتَبَه لكم، أي: أوجَبَه، أو اللَّوحِ، أو القرآنِ).

فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

أي: فهذا هو يومُ القيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه النَّاسَ مِن قُبورِهم، ولكِنَّكم كنتُم في الدُّنيا -أيُّها الكُفَّارُ- لا تَعلَمونَ أنَّكم تُبعَثونَ بعدَ مَوتِكم، بل كان دَأْبُكم الإنكارَ والتَّكذيبَ بذلك.

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57).

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ.

أي: فيومَ القيامةِ لا يَنفَعُ المكَذِّبينَ بالبَعثِ اعتِذارُهم.[68]

((تفسير البيضاوي)) (211/4).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: فيما كتَب الله لكم في سابِقِ عِلمِه: الثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، وابن عادل.

يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (307/7)، ((تفسير البغوي)) (583/3)، ((تفسير الخازن)) (394/3)، ((تفسير ابن عادل)) (430/15).

وقيل: إنَّ في الآيةِ تقديمًا وتأخيرًا، تقديرُه: وقال الَّذين أُوتوا العِلمَ بكتابِ الله والإيمانَ باللهِ عزَّ وجَلَّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (527/18)، ((تفسير ابن الجوزي)) (428/3).

(68) قيل: المرادُ: اعتذارُهم بقَولِهم: ما عَلِمْنا أنَّ القيامةَ كائنةٌ، ولا أنَّا نُبعَثُ.

ومِمَّن قال بذلك: ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (528/18).

ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (5706/9).

وقال ابنُ كثير: (أي: لا ينفَعُهم اعتذارُهم عَمَّا فَعَلوا).

((تفسير ابن كثير)) (328/6).

وقال السعدي: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ فإن كَذَّبوا وزَعَموا أنَّهم ما قامت عليهم الحُجَّةُ، أو ما تمكَّنوا من الإيمانِ؛ ظَهَر كَذِبُهم بشهادةِ أهلِ العلمِ والإيمانِ، وشهادةِ جُلودِهم وأيديهم وأرجُلِهم، وإن طَلَبوا الإعذارَ وأنَّهم يُرَدُّونَ ولا يعودونَ لما نُهُوا عنه، لم يُمكَّنوا؛ فإنَّه فات وقتُ الإعذارِ، فلا تُقبَلُ مَعذِرتُهم).

((تفسير السعدي)) (ص: 645).

وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ.

أي: ولا يُطلَبُ يومَ القيامةِ مِن الظَّالِمينَ أن يَرجِعوا إلى ما يُرضي اللهَ -عزَّ وجَلَّ- بالتَّوبةِ والإيمانِ والطَّاعةِ، حتى تُزالَ عنهم المُعاتَبةُ والمُؤاخَذةُ.

كما قال تعالى: وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ [فصلت: 24].

سورةُ الرُّومِ

الآيات (58-60)

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60)

غَريبُ الكَلِماتِ:

مُبْطِلُونَ: أي: أصحابُ باطلٍ، والباطِلُ: نقيضُ الحقِّ، والإِبطالُ يُقالُ في إفسادِ الشَّيءِ وإزالتِه؛ حقًّا كان ذلك الشيءُ أو باطلًا، وأصلُ (بطل): ذَهابُ الشَّيءِ وقِلَّةُ مُكْثِه ولُبْثِه.

يَطْبَعُ: أي: يختِمُ، وطبْعُ القلبِ: الختمُ عليه حتَّى لا يَصِلَ إليه هُدًى، والطَّبْعُ: أنْ تصوِّرَ الشَّيءَ بصورةٍ ما، وهو أعمُّ مِن الختمِ وأخصُّ مِن النَّقشِ، وبه اعتُبِرُ الطَّبْعُ والطَّبيعةُ الَّتي هي السَّجيَّةُ؛ فإنَّ ذلك هو نقْشُ النَّفْسِ بصورةٍ ما؛ إمَّا مِن حيثُ الخِلقةُ، وإمَّا مِن حيثُ العادةُ، وأصلُ (طبع): هو مَثَلٌ على نهايةٍ يَنْتَهي إليها الشَّيءُ حتَّى يُخْتَمَ عندَها.

يَسْتَخِفَّنَّكَ: أي: يُزعِجَنَّك ويَستفزَّنَّك عن اعتِقادِك، وأصلُ (خفف): يدُلُّ على خِلافِ الثِّقَلِ والرَّزانةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58).

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ.

أي: ولقَدْ ذكَرْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ كُلَّ مَثَلٍ تتبيَّنُ به الحقائِقُ، وتنقَطِعُ به الحُجَّةُ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا [الإسراء: 89].

وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ.

أي: ولَئِنْ جِئتَ الكُفَّارَ –يا محمَّدُ– بأيِّ علامةٍ ودَلالةٍ تُثبِتُ صِدقَك، لَيقولُنَّ: ما أنتم –أيُّها الرَّسولُ والمُؤمِنونَ به– إلَّا مُتَّبِعونَ للباطِلِ!

كما قال تعالى: وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [الأنعام: 7].

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59).

أي: مِثْلَما خَتَمَ اللهُ على قُلوبِ أولئك الكُفَّارِ فلا يَفقَهونَ آياتِ اللهِ، يَختِمُ أيضًا على قُلوبِ غَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ، فلا يُؤمِنونَ بالحَقِّ أبدًا.(69)

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [البقرة: 6، 7].

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60).

---

(69) قيل: المرادُ بالَّذين لا يَعلَمونَ: أي: الَّذين لا يَعلَمونَ حَقيقةَ ما يأتيهم به محمَّدٌ مِن عندِ الله مِن هذه العِبَرِ والعِظاتِ، والآياتِ البيِّناتِ؛ فلا يَفقَهونَ عن الله حُجَّةً، ولا يَفهَمونَ عنه ما يَتلو عليهم مِن آيِ كتابِه؛ فهم لذلك في طُغيانِهم يَتردَّدونَ.

قاله ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/529).

ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (9/5707).

وقيل: الذين لا يَعلَمونَ توحيدَ الله.

وممَّن قال به: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/439)، ((تفسير البغوي)) (3/583)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/428)، ((تفسير القرطبي)) (14/49)، ((تفسير الخازن)) (3/395)، ((تفسير العليمي)) (5/297).

ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/136)، ((تفسير ابن عاشور)) (21/134).

وقيل المعنى: لا يَطلُبون عِلمَ ما يَجهَلونه، ولا يَتحرَّون الحقَّ، بل يُصِرُّون على خرافاتٍ اعتقَدوها، وتُرَّهاتٍ ابتدعُوها.

وممَّن قال به في الجملةِ: البيضاوي، والبقاعي، وأبو السعود، والألوسي.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (4/211)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/136)، ((تفسير أبي السعود)) (7/67)، ((تفسير الألوسي)) (11/61).

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.

أي: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على دَعوةِ الكُفَّارِ وتَعَنُّتِهم وعِنادِهم؛ فإنَّ ما وعَدَ اللهُ به مِن نَصرِ المؤمنينَ، وإهلاكِ الكافِرينَ في الدُّنيا والآخرةِ: آتٍ لا محالةَ.

وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ.

أي: ولا يَستفِزَّك -يا محمَّدُ- عن اتِّباعِ الحقِّ وتَبليغِه: الَّذين لا يُوقِنونَ بوَعدِ اللهِ، فيَحمِلوك بأقوالِهم أو أفعالِهم على الطَّيشِ وعدَمِ الصَّبرِ، فتترُكَ الثَّباتَ على الحقِّ.

كما قال تعالى: وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا [الإسراء: 73 - 75].

وقال سُبحانَه: فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ [القلم: 8، 9].

تَفْسِيرُ
سُورَةِ لُقمانَ

سورةُ لُقمانَ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (لُقمانَ).[70]

سورةُ لُقمانَ مَكِّيَّةٌ.[71]

مِن أهَمِّ مَقاصدِ هذه السُّورةِ:

مُخاطَبةُ النَّفْسِ البَشَريَّةِ بما مِن شأنِه أن يُسعِدَها ويُحيِيَها حياةً طَيِّبةً.

---

(70) سُمِّيت سورةَ لقمانَ؛ لاشتِمالِها على قِصَّتِه وجُمَلٍ مِن حِكمتِه الَّتي أدَّبَ بها ابنَه.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/370)، ((تفسير ابن عاشور)) (21/137).

قال ابنُ عاشور: (وليس لها اسمٌ غيرُ هذا الاسمِ، وبهذا الاسمِ عُرِفت بينَ القُرَّاءِ والمفَسِّرينَ، ولم أقِفْ على تصريحٍ به فيما يُروَى عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بسَنَدٍ مَقبولٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (21/137).

(71) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا الآياتِ الثَّلاثَ مِن قَولِه تعالى: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ [لقمان: 27] إلى آخِرِ الآيةِ الثَّالثةِ: ...

وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [لقمان: 29]؛ فمَدَنيَّةٌ.

وقيل: قَولُه تعالى: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ...

والآيةُ الَّتي بعْدَها مَدَنيَّتانِ.

وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا قولَه تعالى: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [لقمان: 4] .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/531)، ((تفسير الزمخشري)) (3/489)، ((تفسير ابن عطية)) (4/399)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/429).

مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

1- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ، وأنَّه هِدايةٌ ورَحمةٌ للمُؤمنينَ، مع ذِكرِ بَعضِ صِفاتِهم.

2- ذِكرُ جانبٍ مِن صِفاتِ المُشركِينَ الَّذين يَستَهزِئونَ بآياتِ اللهِ تعالى، ويُعرِضونَ عنها.

3- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه.

4- ذِكرُ لُقمانَ وما أُعطِيَ مِن الحِكمةِ، ووصاياه لابنِه المُشتَمِلةِ على الدَّعوةِ إلى العَقيدةِ الصَّحيحةِ، ومكارِمِ الأخلاقِ، وأداءِ العباداتِ، ومُراقبةِ اللهِ.

5- بيانُ ألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ على عِبادِه، وإحاطةِ عِلمِه سُبحانَه بكُلِّ شَيءٍ.

6- النَّعيُ على المُشرِكينَ فى رُكونِهم إلى التَّقليدِ إذا دُعُوا إلى النَّظَرِ فى الكَونِ، وعِبادةِ اللهِ تعالى الَّذي خَلَقَه.

7- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على عَدَمِ إيمانِ المُشركِينَ.

8- دعوةُ النَّاسِ جَميعًا إلى تَقْوى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وعَدَمِ الاغترارِ بالدُّنيا.

9- ذِكرُ مَفاتيحِ الغَيبِ الخَمسةِ الَّتي استأثَرَ اللهُ بعِلمِها.

سورةُ لُقمانَ

الآيات (1–5)

الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (5)

تَفسيرُ الآياتِ:

الم (1).

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّومِ.

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2).

أي: تلك الآياتُ العاليةُ الرُّتبةِ، العَظيمةُ الشَّأنِ: آياتُ الكتابِ المُشتَمِلِ على الحِكمةِ، المحكَمِ في ألفاظِه ومعانيه، فلا نَقصَ فيه، ولا تناقُضَ، ولا خلَلَ.(72)

---

(72) قيل: الإشارةُ هنا تعودُ إلى جميعِ آياتِ القُرآنِ الكريمِ.

وهو ظاهرُ اختيارِ السعديّ، واختيار ابنِ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 646)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: 13).

وقيل: الإشارةُ هنا ترجِعُ إلى آياتِ هذه السُّورةِ؛ سورةِ لُقمانَ.

وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (140/21).

قال الشوكاني: (والْحَكِيمِ إمَّا أن يكونَ بمعنَى مُفْعَلٍ، أو بمعنَى فاعلٍ، أو بمعنَى ذي الحكمةِ أو الحكيمِ قائلُه).

((تفسير الشوكاني)) (269/4).

وقال ابن عطية: (والْحَكِيمِ يَصِحُّ أن يكونَ مِنَ الحكمةِ، ويصِحُّ أن يكونَ مِنَ الحُكمِ).

((تفسير ابن عطية)) (345/4).

وقال الفيروزابادي: (وإذا وُصِف القرآنُ بالحكمةِ فلِتَضَمُّنِه الحكمةَ، نحو: الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ [يونس: 1].

وقيل: معنى الحكيمِ: المحكَمُ، نحو: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ [هود: 1].

وكِلا المعنيَينِ صحيحٌ).

((بصائر ذوي التمييز)) (491/2).

كما قال تعالى: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [هود: 1].

وقال سُبحانَه: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [الإسراء: 9].

هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3).

أي: تلك آياتُ الكتابِ حالَ كونِها هُدًى مِن كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخرةِ للمُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، المُحسِنينَ إلى عبادِ اللهِ.

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4).

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ.

أي: أولئك المُحسِنونَ هم الَّذين يُؤَدُّونَ الصَّلَواتِ تامَّةً مُستقيمةً على الوجهِ الَّذي شرَعَه اللهُ تعالى، ويؤدُّونَ زكاةَ أموالِهم لأهلِها المُستحِقِّينَ لها، كما فرَضَ اللهُ تعالى.

وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ.

أي: وهم يُؤمِنونَ إيمانًا جازِمًا لا شكَّ فيه بالآخِرةِ، وما يكونُ فيها مِن ثوابٍ وعِقابٍ، وبَعثٍ ونُشورٍ وغَيرِ ذلك.

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5).

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ.

أي: أولئك المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ: على هُدًى حاصِلٍ لهم مِن رَبِّهم الَّذي لولا إحسانُه إليهم وتَربيتُه الخاصَّةُ لهم لَمَا تمكَّنوا مِن هُداه.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

أي: وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخِرةِ.

سورةُ لُقمانَ

الآيات (6–9)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

لَهْوَ الْحَدِيثِ: أي: باطِلَه وما يَشغَلُ عن الخَيرِ، أو الغِناءَ والمعازِفَ، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بِشَيءٍ.

وَقْرًا: أي: ثِقلًا، وصَمَمًا، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلِ الشَّيءِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يَشتري[73] الحديثَ الباطِلَ المُلْهِيَ للقُلوبِ؛[74] لِيَصُدَّ عن اتِّباعِ الهُدى والحَقِّ بلا عِلمٍ.[75]

---

(73) قال الرسعني: (قولُه تعالى: يَشْتَرِي إمَّا أن يكونَ على حقيقتِه...
أو على مجازِه، وهو إيثارُ اللَّهوِ، واختيارُه).
((تفسير الرسعني)) (6/46).
ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/346)، ((تفسير ابن جزي)) (2/137).
وممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/534)، ((تفسير السمرقندي)) (3/21).
وممَّن اختار الثَّانيَ، أي: يختارُ ويرغَبُ رَغبةَ مَن يَبذُلُ الثَّمَنَ في الشَّيءِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين.
يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 647)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة لقمان)) (ص: 24).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير البغوي)) (3/586).
قال الواحدي: (قال أهلُ المعاني: ويَدخُلُ في هذا كُلُّ مَن اختار اللَّهوَ والغناءَ والمزاميرَ والمعازفَ على القرآنِ.
وإنْ كان اللَّفظُ قد ورد بالشِّراءِ).
((البسيط)) (18/95).
اختلف السلف في معنى الشراء على قولين: الأول: أنّ الشراء بمعنى: الاستحباب.
الثاني: أنه شراء على حقيقته.
وقد رجّح ابنُ جرير (١٨/ ٥٣٤) مستندًا إلى الأظهر من معاني اللفظ القول الثاني، فقال: «وأولى التأويلين عندي بالصواب تأويلُ مَن قال: معناه: الشراء، الذي هو بالثمن، وذلك أن ذلك هو أظهر معنييه».
ثم قال: «فإن قال قائل: وكيف يشتري لهو الحديث؟ قيل: يشتري ذات لهو الحديث، أو ذا لهو الحديث، فيكون مشتريًا لهو الحديث».
وأما ابنُ عطية (٧/ ٤١ – ٤٢) فقد بيّن احتمال الآية لكلا القولين.
اختلف السلف في معنى اللهو على أقوال: الأول: أنه الغناء.
الثاني: أنه الطبل.
الثالث: أنه الشرك.
الرابع: أنه أخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٨/ ٥٣٩) صحّةَ جميع ذلك؛ للعموم في معنى ذلك، فقال: «والصواب من القول في ذلك أن يُقال: عنى به كل ما كان من الحديث ملهيًا عن سبيل الله، مما نهى الله عن استماعه أو رسوله؛ لأن الله تعالى عم بقوله: ﴿لهو الحديث﴾ ولم يخصص بعضًا دون بعض، فذلك على عمومه، حتى يأتي ما يدل على خصوصه، والغناء والشرك من ذلك».

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٢) هذه الأقوال وبعض روايات النزول، ثم رجّح مستندًا إلى ظاهر سياق الآية بقوله: «والذي يترجح أن الآية نزلت في لهو حديث مضاف إلى كفر، فلذلك اشتدت ألفاظ الآية بقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾، وبالتوعد بالعذاب المهين، وأما لفظة الشراء فمحتملة للحقيقة والمجاز على ما بينا، ولهو الحديث: كل ما يلهي من غناء وخنا ونحوه».

وعلّق ابنُ القيم (٢/ ٣١٧ - ٣١٨) على القول الأول والرابع، فقال: «ولا تعارض بين تفسير ﴿لهو الحديث﴾ بالغناء، وتفسيره: بأخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم، ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يُحَدِّث به أهل مكة، يشغلهم به عن القرآن، فكلاهما لهو الحديث، ولهذا قال ابن عباس: لهو الحديث: الباطل والغناء.

فمن الصحابة من ذكر هذا، ومنهم من ذكر الآخر، ومنهم من جمعهما».

ثم قال: «والغناء أشد لهوًا، وأعظم ضررًا من أحاديث الملوك وأخبارهم؛ فإنه رقية الزنا، ومنبت النفاق، وشرك الشيطان ... إذا عرف هذا فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه، فإنّ الآيات تضمنت ذمَّ من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوًا».

(74) قيل: المرادُ به: الغِناءُ.

وممَّن ذهب إليه: القرطبي، وابنُ جُزَي، وابن كثير، ونسَبه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفسّرينَ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (51، 53)، ((تفسير ابن جزي)) (137/2)، ((تفسير ابن كثير)) (330/6)، ((الوسيط)) للواحدي (441/3).

وقيل: المرادُ به العمومُ؛ فيَعُمُّ كُلَّ حديثٍ باطلٍ ومُلْهٍ عن سبيلِ الله، فيَدخُلُ فيه الغِناءُ، وأخبارُ الأعاجمِ ومُلوكِها، ونحو ذلك.

وممَّن قال بالعموم: ابنُ جرير، وابن القيم، والبِقاعي، والشوكاني، والألوسي، والسعدي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (539/18)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (240/1)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (146/15، 147)، ((تفسير الشوكاني)) (270/4)، ((تفسير الألوسي)) (67/11)، ((تفسير السعدي)) (ص: 647)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: 28).

قال الشوكاني: (ولهوُ الحديثِ: كلُّ ما يُلْهي عن الخيرِ؛ مِن الغناءِ، والملاهي، والأحاديثِ المكذوبةِ، وكلُّ ما هو منكرٌ).

((تفسير الشوكاني)) (270/4).

وقال ابنُ القيِّم: (لا تَعارُضَ بينَ تفسيرِ «لهوِ الحديثِ» بالغِناءِ، وتفسيرِه بأخبارِ الأعاجِمِ ومُلوكِها وملوكِ الرُّومِ، ونحو ذلك ... فكِلاهما لهوُ الحديثِ؛ ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ: «لهوُ الحديثِ: الباطِلُ والغِناءُ»، فمِنَ الصَّحابةِ مَن ذكَرَ هذا، ومنهم مَن ذكَرَ الآخَرَ، ومنهم مَن جمَعَهما).

((إغاثة اللهفان)) (240/1).

كما قال الله تعالى: وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا [النساء: 27].

وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا.

أي: ولِيَستهزِئَ بسَبيلِ اللهِ، ويَسخَرَ منها.

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ.

أي: أولئك لهم عذابٌ يُخزيهم، ويُهينُهم، ويُذِلُّهم.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

---

(75) قال الرسعني: (قوله: بِغَيْرِ عِلْمٍ في محلِّ الحالِ من الضَّميرِ في يَشْتَرِي، أو في لِيُضِلَّ، فهو تجهيلٌ للمُضِلِّ أو تجهيلٌ للمشتري، حيثُ لم يهتَدِ إلى التِّجارةِ الرَّابحةِ).

((تفسير الرسعني)) (46/6).

قيل: المرادُ بقولِه: بِغَيْرِ عِلْمٍ أي: أنَّه جاهلٌ فيما يفعلُ، لا يفعلُه عن عِلمٍ، بل عن جهلٍ.

وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، والبَغَوي، والعُلَيمي.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (442/3)، ((تفسير البغوي)) (586/3)، ((تفسير العليمي)) (301/5).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: بِغَيْرِ عِلْمٍ: الجهلُ بعاقبةِ ذلك وإثمِه.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (540/18).

وقيل: المرادُ أنَّ فِعلَه هذا ناشئٌ عن الجهلِ باللهِ عزَّ وجَلَّ، وعن الجهلِ بشَرعِه، وعن الجهلِ بحقيقةِ ما خُلِقَ له.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: 26).

وقيل: بِغَيْرِ عِلْمٍ أي بحالِ ما يَشتريه، أو بالتِّجارةِ وما يَنفعُ منها وما يَضُرُّ، حيثُ استبدَلَ الشَّرَّ البَحتَ بالخَيرِ المَحضِ.

وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: أبو السعود، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (69/7)، ((تفسير الشوكاني)) (270/4).

في قَولِه تعالَى: لِيُضِلَّ قراءتانِ:

1– قِراءةُ لِيَضِلَّ بفَتحِ الياءِ، على معنى: أنَّه يَضِلُّ هو نَفْسُه.

2– قراءةُ لِيُضِلَّ بضَمِّ الياءِ، على معنى: أنَّه يُضِلُّ غيرَه، وإذا أضلَّ غيرَه فقد أضلَّ نفْسَه أيضًا.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

(7).

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا.

أي: وإذا تُتلَى عليه آياتُ القُرآنِ؛ لِيُؤمِنَ بها، ويَنقادَ إليها، أعرَضَ عنها وهو شَديدُ التَّكبُّرِ عن قَبولِها، فلم تَدخُلْ قَلْبَه ولا انتفَعَ بها، بل أدبَرَ عنها، كأنَّه لا يَسمَعُها!

كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا.

أي: كأنَّ في أُذُنيه صَمَمًا وثِقلًا يمنَعُه مِن سَماعِها!

كما قال تعالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا [الكهف: 57].

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

أي: فبَشِّرْه بعَذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ.

كما قال تعالى: وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [الجاثية: 7 – 10].

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8).

أي: إنَّ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ بإخلاصٍ لله تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه: لهم في الآخرةِ جَنَّاتٌ يتنعَّمونَ فيها بأنواعِ النَّعيمِ.

خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9).

خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: ماكِثينَ فيها أبدًا.

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا.

أي: وَعَدهم اللهُ هذا وعْدًا حَقًّا، لا يُمكِنُ أن يَتخلَّفَ وُقوعُه، أو يَتغيَّرَ ويتبدَّلَ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ [آل عمران: 9].

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أي: واللهُ هو الَّذي له كَمالُ العِزَّةِ؛ فقَهَر وغلَبَ كُلَّ شَيءٍ، ودانَ له كُلُّ شَيءٍ، ومِن عِزَّتِه أنَّه لا يمنَعُه شَيءٌ مِن تنفيذِ وَعدِه ووعيدِه، وله كَمالُ الحِكمةِ والإحكامِ في أقوالِه وأفعالِه، ومِن عِزَّتِه وحِكمتِه أنَّه وَفَّق مَن وَفَّق مِن عبادِه، وخَذَل مَن خَذَل منهم.

سورةُ لُقمانَ

الآيتان (10–11)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11)

غَريبُ الكَلِماتِ:

رَوَاسِيَ: أي: جِبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسي): يدُلُّ على ثَباتٍ.

تَمِيدَ: أي: تَميلَ وتَضطَرِبَ، والمَيْدُ: الحَرَكةُ والمَيَلُ، وأصلُ (ميد): يدُلُّ على حَرَكةٍ.

وَبَثّ: أي: فرَّق ونشَرَ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على تفريقِ الشَّيءِ.

زَوْجٍ: أي: لَونٍ وصِنفٍ، يُقالُ لِكُلِّ ما يَقترِنُ بآخَرَ مُماثِلًا له أو مُضادًّا: زَوجٌ، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ.

تَفسيرُ الآيتَين:

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10).

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.

أي: خلَقَ اللهُ السَّمَواتِ السَّبْعَ مَرفوعةً بلا أعمِدةٍ، كما تَرَونَها.(76)

---

(76) قال ابن جُزَي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الرَّعدِ، الآية (2): (تَرَوْنَهَا قيل: الضَّميرُ لِلسَّمواتِ، وتَرَوْنَهَا على هذا في موضعِ الحالِ، أو استئنافًا.

وقيل: الضَّميرُ للعَمَدِ، أي: ليس لها عَمَدٌ مَرئيَّةٌ، فيَقتضي المفهومُ مِن أنَّ لها عَمَدًا لا تُرى.

وقال الجمهورُ: لا عَمَدَ لها البَتَّةَ، فالمرادُ نَفْيُ العَمَدِ، ونفْيُ رُؤيتِها).

((تفسير ابن جزي)) (399/1).

قال الرَّسْعَني: (لأنَّها لو احتاجتْ إلى عَمَدٍ لافتقَرَ العَمَدُ إلى دِعامةٍ أيضًا، وتَسلسَل إلى ما لا نهايةَ له).

((تفسير الرسعني)) (437/3).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الرعد من ((التفسير المحرر)) (13/12).

اختلف السلف في معنى اللهو على أقوال: الأول: أنه الغناء.

الثاني: أنه الطبل.

الثالث: أنه الشرك.

الرابع: أنه أخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٨/ ٥٣٩) صحّةَ جميع ذلك؛ للعموم في معنى ذلك، فقال: «والصواب من القول في ذلك أن يُقال: عنى به كل ما كان من الحديث ملهيًا عن سبيل الله، مما نهى الله عن استماعه أو رسوله؛ لأن الله تعالى عم بقوله: ﴿لهو الحديث﴾ ولم يخصص بعضًا دون بعض، فذلك على عمومه، حتى يأتي ما يدل على خصوصه، والغناء والشرك من ذلك».

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٤٢) هذه الأقوال وبعض روايات النزول، ثم رجّح مستندًا إلى ظاهر سياق الآية بقوله: «والذي يترجح أن الآية نزلت في لهو حديث مضاف إلى كفر، فلذلك اشتدت ألفاظ الآية بقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا [الرعد: 2].

وقال سُبحانَه: وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ [الحج: 65].

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ.

أي: وجعَلَ اللهُ في الأرضِ جِبالًا ثابتةً؛ لِئَلَّا تَتمايَلَ الأرضُ، وتَضطَرِبَ بكم.

كما قال تعالى: وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا [النبأ: 7].

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ.

أي: وفرَّق اللهُ في الأرضِ ونشَرَ مِن كُلِّ أنواعِ الدَّوابِّ.

هُزُوًا﴾، وبالتوعد بالعذاب المهين، وأما لفظة الشــــراء فمحتملة للحقيقة والمجاز على ما بينا، ولهو الحديث: كل ما يلهي من غناء وخنا ونحوه».

وعلّق ابنُ القيم (٢/ ٣١٧ – ٣١٨) على القول الأول والرابع، فقال: «ولا تعارض بين تفســـير ﴿لهو الحديث﴾ بالغناء، وتفسيره: بأخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم، ونحو ذلك مما كان النضـر بن الحارث يُحَدِّث به أهل مكة، يشـغلهم به عن القرآن، فكلاهما لهو الحديث، ولهذا قال ابن عباس: لهو الحديث: الباطل والغناء.

فمن الصحابة من ذكر هذا، ومنهم من ذكر الآخر، ومنهم من جمعهما».

ثم قال: «والغناء أشد لهوًا، وأعظم ضررًا من أحاديث الملوك وأخبارهم؛ فإنه رقية الزنا، ومنبت النفاق، وشرك الشيطان ...

إذا عرف هذا فأهل الغناء ومســتمعوه لهم نصـيب من هذا الذم بحسـب اشـتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه، فإنّ الآيات تضمنت ذمَّ من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوًا».

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ.

أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ مَطرًا، فأنبَتْنا بسَبَبِه مِن كُلِّ أصنافِ النَّباتاتِ الحَسَنةِ المنظَرِ، الكثيرةِ المنافعِ.(77)

كما قال تعالى: وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى [طه: 53].

وقال سُبحانَه: وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [الحج: 5].

وقال عزَّ وجلَّ: وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا [ق: 9 – 11].

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11).

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ.

أي: هذا الَّذي تقدَّمَ ذِكرُه مِن خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما هو خَلْقُ اللهِ وَحْدَه؛ فأرُوني –أيُّها المُشرِكونَ– أيَّ شَيءٍ خَلَقَ الَّذين تَعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ حتَّى استحَقُّوا تلك العبادةَ منكم؟!

---

(77) قال ابنُ عطية (٧/ ٤٣): «وقوله تعالى: ﴿كَرِيمٍ﴾ يحتمل أن يريد مدحه من جهة إتقان صنعته، وظهور حسن الرتبة والتحكم للصنع فيها، فيعم حينئذ جميع الأنواع؛ لأن هذا المعنى في كلها.

ويحتمل أن يريد مدحه بكرم جوهره، وحسن منظره، وما تقتضي له النفوس بأنه أفضل من سواه حتى يستحق الكرم؛ فتكون الأزواج على هذا مخصوصة في نفائس الأشياء ومستحسناتها، ولما كان عُظْمُ الموجودات كذلك خصص الحجة بها».

كما قال تعالى: أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ [النحل: 17].

بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

أي: بل المُشركونَ في ذَهابٍ عن الحَقِّ واضِحٍ ظاهِرٍ؛ حيثُ عَبَدوا ما لا يَخلُقُ شَيئًا، وتَرَكوا عِبادةَ الخالِقِ وحْدَه سُبحانَه!

كما قال تعالى: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا [الفرقان: 3].

سورةُ لُقمانَ

الآيتان (12-13)

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ
غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ (13)

تَفسيرُ الآيتَينِ:

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12).

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ.

أي: ولقدْ آتَيْنا لُقمانَ[78] الفَهمَ والعِلمَ والفِقهَ في الدِّينِ، والإصابةَ في القَولِ والعَمَلِ؛ أي: اشكُرْ للهِ.[79]

---

(78) قال ابنُ كثير: (جمهورُ السَّلَفِ على أنَّه لم يكُنْ نبيًّا).

((تفسير ابن كثير)) (6/334).

ونسَب النووي ذلك إلى الجماهيرِ مِن العلماءِ، وذكَر أنَّ مَن قال: إنَّه نبيٌّ قد شذَّ، ولا التفاتَ إليه، ولا تعريجَ عليه.

يُنظر: ((الأذكار)) (ص: 119).

(79) ممَّن اختار أنَّ أَنِ تفسيريَّةٌ، وأنَّ المعنى: أي: اشكُرْ لله: ابنُ جرير، والزمخشري، والرازي، والرسعني، والنسفي، وأبو السعود، وابن عاشور، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/549)، ((تفسير الزمخشري)) (3/493)، ((تفسير الرازي)) (25/119)، ((تفسير الرسعني)) (6/52)، ((تفسير النسفي)) (2/713)، ((تفسير أبي السعود)) (7/71)، ((تفسير ابن عاشور)) (21/152)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة لقمان)) (ص: 73، 76).

قال ابنُ عطية: (يجوزُ أن تكونَ مفسِّرةً، أي: كانت حكمتُه دائرةً على الشُّكرِ لله ومعانيه، وجميعُ العباداتِ والمعتقَداتِ داخلةٌ في شكرِ الله تعالى).

((تفسير ابن عطية)) (4/348).

وقيل: إنَّ (أن) هنا مصدريَّةٌ.

وممَّن اختاره الزَّجَّاجُ.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (4/195).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (8/413)، ((تفسير الألوسي)) (11/83).

كما قال تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا [البقرة: 269].

عن أنسٍ رضيَ الله عنه: (أنَّ لُقمانَ كان عندَ داودَ وهو يَسْرُدُ الدِّرعَ،[80] فجعَل يَفتِلُه هكذا بيَدِه، فجعَل لُقمانُ يتعجَّبُ ويُريدُ أن يَسألَه، فتَمنَعُه حِكمتُه أن يَسألَ، فلمَّا فرَغ منها ضمَّها على نفْسِه، وقال: نِعْمَ دِرعُ الحربِ هذه! فقال لقمانُ: إنَّ الصَّمتَ مِن الحُكمِ، وقليلٌ فاعِلُه، كنتُ أريدُ أن أسألَك فسكَتُّ حتَّى كَفَيْتَني).[81]

وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ.

أي: ومَن يَشكُرِ اللهَ على نِعَمِه، فإنَّما يَعودُ نَفْعُ ذلك وثَوابُه إليه لا إلى اللهِ سُبحانَه.

وقيل: المرادُ: أنه لمَّا آتاه الله تعالى الحكمةَ أمَرَه بأن يَشكُرَه على ذلك.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (6/335)، ((تفسير السعدي)) (ص: 648).

(80) يسرُدُ الدِّرعَ، أي: يَنسُجُها ويُدخِلُ الحِلَقَ بَعضَها في بَعضٍ.

يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 145).

(81) أخرجه الحاكم (3582)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (5026) واللفظ له.

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ، وصحَّحه البيهقيُّ، وأقرَّه العِراقي في ((تخريج الإحياء)) (3/108)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (6/537).

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

أي: ومَن كَفَر نِعَمَ اللهِ عليه، فإنَّما يَرجِعُ ضَرَرُ كُفرِه ووَبالُه عليه؛ فاللهُ غَنيٌّ عن شُكرِ العبادِ، فشُكرُهم لا يَنفَعُ اللهَ بشَيءٍ، وكُفرُهم لا يضُرُّ اللهَ في شَيءٍ؛ فهو مَحمودٌ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه على كُلِّ حالٍ، وهو حامِدٌ لِمَن يَشكُرُه سُبحانَه.

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13).

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ.

أي: واذكُرْ إذ أوصَى لُقمانُ ابنَه بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه، وحَذَّره مِنَ الشِّرْكِ، فقال له ناصِحًا بما يَنفَعُه، ويُهَذِّبُ نفْسَه، ويُرقِّقُ قلْبَه: يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ باللهِ شَيئًا.

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

أي: إنَّ الشِّركَ باللهِ خَطأٌ وذَنْبٌ عَظيمٌ؛ فالمُشرِكُ يَظلِمُ نفْسَه بصَرفِ العِبادةِ إلى مَن لا يَستَحِقُّها![82]

(82) قال ابنُ عطيةَ: (ظاهرُ قولِه: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ أنَّه مِن كلامِ لقمانَ، ويَحتمِلُ أن يكونَ خبرًا مِن الله تعالى منقطعًا مِن كلامِ لقمانَ، متَّصلًا به في تأكيدِ المعنَى).

((تفسير ابن عطية)) (348/4).

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلت: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام: 82] قُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، أيُّنا لا يَظلِمُ نَفْسَه؟! قال: ليس كما تَقولونَ؛ (لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) بشِركٍ، أوَلَمْ تَسمَعوا إلى قَولِ لُقمانَ لابنِه: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ؟)).(83)

(83) رواه البخاري (3360) واللفظ له، ومسلم (124).

سورةُ لُقمانَ

الآيتان (14–15)

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي
وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

وَهْنًا: أي: ضَعْفًا، وأصلُ (وهن): يدُلُّ على ضَعفٍ.

وَفِصَالُهُ: أي: فِطامُه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه.

أَنَابَ: أي: رجَعَ وتابَ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ، ورُجوعٍ إليه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14).

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ.

أي: وعَهِدْنا إلى الإنسانِ وأمَرْناه ببِرِّ والِدَيه، والإحسانِ إليهما.

كما قال تعالى: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا [النساء: 36].

وقال سُبحانَه: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا... [الإسراء: 23، 24].

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ.

أي: حمَلَت الأمُّ ولَدَها في بَطنِها، وهي تزدادُ ضَعفًا على ضَعفٍ، وثِقلًا وشِدَّةٍ، إلى أن تضعَه بمشَقَّةٍ وألمٍ.(84)

---

(84) قال ابنُ عطية (٧/ ٤٧): «﴿وهْنًا على وهْنٍ﴾ معناه: ضعفًا على ضعف.

وقيل: إشارة إلى مشقة الحمل، ومشقة الولادة بعده.

وقيل: إشارة إلى ضعف الولد، وضعف الأم معه.

ويحتمل أنه أشار إلى تدرج حالها في زيادة الضعف، كأنه لم يُعَيِّن ضعفين، بل كأنه قال: حملته أمه، والضعف يتزيد بعد الضعف إلى أن ينقضي أمدُه».

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ.

أي: وفِطامُ الولَدِ في عامَينِ مِن ولادتِه، فلا ينفَصِلُ مِن أمِّه إلَّا بعدَ عامَينِ، تُعاني فيهما الأمُّ مَشقَّةَ رَضاعِه، وتَربيتِه، والقيامِ على شُؤونِه.

أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ.

أي: ووصَّيْنا الإنسانَ أنِ اشكُرِ اللهَ على إنعامِه عليك، وذلك بالقيامِ بعُبوديَّتِه وطاعتِه وَحْدَه، وأداءِ حُقوقِه، واشكُرْ والِدَيك على تحمُّلِهما ما لَقِيَا مِنَ المشَقَّةِ، وما بَذَلاه مِنَ الجُهدِ مِن أجْلِك؛ فأطِعْهما، وأحسِنْ إليهما.

إِلَيَّ الْمَصِيرُ.

أي: إلَيَّ لا إلى غَيري مَرجِعُك -أيُّها الإنسانُ- فأسألُك عن شُكري، وشُكرِ والِدَيك، وأُجازيك على عَمَلِك.

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15).

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا.

أي: وإن اجتهَد والِداك المُشرِكانِ -أيُّها المسلِمُ- وحَرَصا كُلَّ الحِرصِ على أن تجعَلَ لي شَريكًا، لا بُرهانَ على صِحَّةِ ألوهيَّتِه؛ فلا تُطِعْهما فيما يأمُرانِك به مِنَ الشِّرك.

عن عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: ((لا طاعةَ في مَعصيةٍ، إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ)).[85]

وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا.

أي: وصاحِبْهما في الدُّنيا[86] مُصاحَبةً حَسَنةً؛ بالإحسانِ إليهما، والطَّاعةِ لهما فيما لا إثمَ فيه عليك.

وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ.

أي: واسلُكْ طَريقَ الَّذين أقبَلوا علَيَّ، ورَجَعوا وتابوا إلَيَّ، واقتَدِ بهم.

(85) رواه البخاري (7257) واللفظ له، ومسلم (1840).

(86) قيل: المرادُ: مُصاحبَتُهما في أمورِ الدُّنيا الَّتي لا تَتعلَّقُ بالدِّينِ مُدَّةَ حياتِهما.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) (15/168).

قال ابنُ عثيمين: (يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بالدُّنيا شــؤونَها، يعني: في أمورِ الدُّنيا صــاحِبْهما مَعروفًا، أمَّا في أمورِ الدِّينِ فلا تتعَدَّ ما أمَرَك اللهُ به.

ويحتمِلُ أن يكونَ فِي الدُّنْيَا أي: في هذه الدُّنيا.

لكِنَّ المعنى الأوَّلَ أبلَغُ؛ لأنَّه مِنَ المعلومِ أنَّ المصاحَبةَ بينَ الوالِدَينِ والولَدِ إنَّما تكونُ في الدُّنيا، فلا حاجةَ إلى التَّقديرِ).

((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: 92).

كما قال تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء: 115].

وقال سُبحانَه: وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ [التوبة: 100].

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: ثمَّ إلَيَّ مَصيرُكم جميعًا –أيُّها النَّاسُ– فأُنَبِّئُكم بجَميعِ أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها.

سورةُ لُقمانَ

الآيات (16–19)

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ
يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي
الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ
صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

غَريبُ الكَلِماتِ:

مِثْقَالَ: أي: زِنةَ، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ.

خَرْدَلٍ: الخَردَلُ: حُبوبٌ دَقيقةٌ كحَبِّ السِّمسِمِ هي بُزورُ شَجَرٍ يُسَمَّى عند العَرَبِ الخَرْدَلَ. ويُضرَبُ به المَثَلُ في الصِّغَرِ والحَقارةِ.

تُصَعِّرْ: أي: تُعْرِضْ بوَجهِك وتتكبَّرْ، والتَّصعيرُ: إمالةُ الخَدِّ عن النَّظَرِ؛ عُجْبًا، وأصلُ (صعر): يدُلُّ على مَيلٍ.

مَرَحًا: أي: اختيالًا وبطرًا وكِبرًا وفخرًا، والمَرَحُ: شدَّةُ الفرحِ والتَّوسُّعُ فيه، وأصلُ (مرح): يدلُّ على مَسَرَّةٍ لا يكادُ يستَقِرُّ معها المرءُ طَرَبًا.

مُخْتَالٍ: أي: مُتكَبِّرٍ ذي فَخرٍ وخُيَلاءَ، والاختيالُ: مأخوذٌ مِنَ (التَّخَيُّل)، والتخيُّلُ: التَّشبُّهُ بالشَّيءِ، فالمُختالُ يَتَخيَّلُ في صورةِ مَن هو أعظَمُ منه؛ كِبْرًا، وأصلُ (خيل): يدُلُّ على حركةٍ في تلَوُّنٍ، والمختالُ في مِشيتِه يتلَوَّنُ في حركتِه ألوانًا.

وَاقْصِدْ: أي: تَواضَعْ واعتَدِلْ، وأصلُ القَصدِ: استِقامةُ الطَّريقِ.

وَاغْضُضْ: أي: أنقِصْ واخْفِضْ، يقالُ: غضَّ منه، إذا نقَص منه، وأصلُ (غضض) هنا: يدُلُّ على كَفٍّ ونقصٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16).

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ.

أي: قال لُقمانُ لابنِه: يا بُنَيَّ، لو كان العملُ مِن خيرٍ أو شرٍّ زِنةَ حبَّةٍ مِن خَردلٍ،(87) فكان في صَخرةٍ أو في جِهةٍ ما في السَّمواتِ أو في الأرضِ؛ فإنَّ اللهَ يأتي به يومَ القيامةِ، ويحاسِبُ عليه، ويُوَفِّي جَزاءَه.(88)

---

(87) ذكر ابنُ جرير (١٨/ ٥٥٤ – ٥٥٦) في عود الهاء من قوله: ﴿إنها﴾ قولًا لبعض أهل اللغة البصريين –وهو قول مقاتل–: أنها الخطيئة.

وذكر قولًا آخر فقال: «وقال بعض نحويي الكوفة: وهذه الهاء عماد.

وقال: أنّث ﴿تك﴾ لأنه يُراد بها الحبة، فذهب بالتأنيث إليها».

ثم رجّح مستندًا إلى الدلالة العقلية هذا القول، فقال: «وأولى القولين بالصواب عندي القول الثاني؛ لأن الله –تعالى ذِكْرُه– لم يعد عباده أن يوفيهم جزاء سيئاتهم دون جزاء حسناتهم، فيقال: إنّ المعصية إن تك مثقال حبة من خردل يأتِ الله بها، بل وعد كِلا العاملين أن يوفيه جزاء أعمالهما.

فإذا كان ذلك كذلك كانت الهاء في قوله: ﴿إنها﴾ بأن تكون عمادًا أشبه منها بأن تكون كناية عن الخطيئة والمعصية».

واستدل على ذلك بقول قتادة.

ورجّح ابنُ كثير (١١/ ٥٥) القول الأول بقوله: «والأول أولى».

ولم يذكر مستندًا.

قال ابن عطية (٧/ ٤٩ – ٥٠): «وقوله: ﴿مِثْقالَ حَبَّةٍ﴾ عبارة تصلح للجواهر، أي قدر حبة، وتصلح للأعمال، أي ما زنته على جهة المماثلة قدر حبة، فظاهر الآية أنه أراد شيئًا من الأشياء خفيًا قدر حبة، ويؤيد ذلك ما روي من أن ابن لقمان سأل أباه عن الحبة تقع في مثل البحر، أيعلمها الله؟ فراجعه لقمان بهذه الآية.

وذكر كثير من المفسرين أنه أراد الأعمال المعاصي والطاعات، ويؤيد ذلك قوله: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أي: لا تفوت، وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف.

فيضاف ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى، وفي القول الآخر ليس ترجية ولا تخويف.

ومما يؤيد قول من قال: هي من الجواهر قراءة عبد الكريم الجزري» فتكِنّ «بكسر الكاف وشد النون من الكِنّ الذي هو الشيء المغطى، وقرأ جمهور القراء» إن تك «بالتاء من فوق،» مثقال «بالنصب على خبر» كان «، واسمها مضمر تقديره: مسألتك، على ما روي، أو المعصية أو الطاعة على القول الثاني».

(88) ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّ الله تعالى يحاسِبُ على الأعمالِ مهما دقَّت وصَغُرت وخَفِيَت، فيأتي بها يومَ القيامةِ، ويحاسِبُ عليها، كما قال تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ [الأنبياء: 47].

ممَّن اختار هذا في الجملة: ابنُ جرير، وابن جُزَي، والبِقاعي، والعليمي، والشنقيطي، وابن عثيمين.

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ دقائِقَ الأشياءِ، ويَسلُكُ في إيصالِها لبُلوغِ أمرٍ يُريدُه مَسلَكَ الرِّفقِ، بالوُجوهِ الخَفيَّةِ الغامِضةِ، وهو بالِغُ العِلمِ بخَفايا الأمورِ وبواطِنِها؛ فلا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/555، 556)، ((تفسير ابن جزي)) (1/5)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/171)، ((تفسير العليمي)) (5/307)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/159)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة لُقمان)) (ص: 100، 101).

قال الزجاج: (هذا مَثَلٌ لأعمالِ العبادِ، أنَّ الله يأتي بأعمالِهم يومَ القيامةِ؛ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: 7، 8]).

((معاني القرآن وإعرابه)) (4/197).

وقيل: هذا القَولُ مِن لُقمانَ إنَّما قَصَد به إعلامَ ابنِه بقَدْرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وهذه الغايةُ الَّتي أمكَنَه أن يفهِّمَه؛ لأنَّ الخَرْدَلةَ يُقالُ: إنَّ الحسَّ لا يُدرِكُ لها ثِقَلًا، إذ لا تُرَجِّحُ ميزانًا.

أي: لو كان للإنسانِ رِزقٌ مِثقالَ حبَّةِ خَرْدَلٍ في هذه المواضِعِ، جاء اللهُ بها حتَّى يَسوقَها إلى مَن هي رِزقُه، أي: لا تهتمَّ للرِّزقِ حتَّى تشتغِلَ به عن أداءِ الفرائضِ، وعن اتِّباعِ سبيلِ مَن أناب إليَّ.

قاله القرطبي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (14/66).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (4/350).

والضَميرُ في إنَّها قيل: إنه عائدٌ إلى الخَصلةِ السَّيِّئةِ أو الحَسَنةِ.

وممَّن قال بذلك: القاسمي، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (8/30)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة لُقمان)) (ص: 100).

وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الخطيئةِ.

وممَّن اختار ذلك: البغوي، والخازن، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (3/588)، ((تفسير الخازن)) (3/398)، ((تفسير الشوكاني)) (4/274).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (6/337).

وقيل: الضَميرُ للقِصَّةِ والحادثةِ، وهو المسمَّى بضميرِ الشَّأنِ، ويقَعُ بصورةِ ضَميرِ المُفرَدةِ المؤنَّثةِ بتأويلِ القِصَّةِ.

وممَّن قال: الضَّميرُ ضميرُ القِصَّةِ: أبو حيَّان، والسمين الحلبي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (8/414)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (9/64)، ((تفسير ابن عاشور)) (21/162).

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17).

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ.

أي: يا بُنَيَّ، أدِّ الصَّلاةَ تامَّةً مُستقيمةً، كما أمَرَ اللهُ تعالى.

وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ.

أي: وأْمُرِ النَّاسَ بتَوحيدِ اللهِ وطاعتِه، واتِّباعِ شَرْعِه.

وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

أي: وانْهَ النَّاسَ عن الشِّركِ باللهِ ومَعصِيَتِه.

وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ.

أي: وتحمَّلْ ما أصابَك مِن بلاءٍ وأذًى.

كما قال تعالى: وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ [يونس: 109].

وقال سُبحانه: وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ [المزمل: 10].

إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ.

أي: إنَّ ذلك[89] مِن الأمورِ الَّتي أوجبَها اللهُ تعالى على عِبادِه، وتحتاجُ إلى حَزمٍ وعَزمٍ [90] للقيامِ بها.[91]

كما قال تعالى: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [آل عمران: 186].

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [الشورى: 43].

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18).

---

(89) قيل: الإشارةُ تعودُ إلى المذكورِ مِن إقامةِ الصَّلاةِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المنكرِ، والصَّبرِ على ما أصاب المرءَ.
وممَّن قال بذلك: العُليمي، والشوكاني، وابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير العليمي)) (5/308)، ((تفسير الشوكاني)) (4/275)، ((تفسير ابن عاشور)) (21/166).
وقيل: تعودُ إلى الأمرِ والنَّهيِ والصَّبرِ.
وممَّن اختاره: الواحدي، والبغوي يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (18/112)، ((تفسير البغوي)) (3/589).
وقيل: تعودُ إلى الصَّبرِ على أذى النَّاسِ.
وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، وابنُ كثير.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/435)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (9/5729)، ((تفسير ابن كثير)) (6/338).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ.
يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (6/523).

(90) اختلف السلف في قوله: ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾ على قولين، الأول: أن معناه: ذلك من حزم الأمور.
الثاني: أن معناه: ذلك مما عزمه الله وأمر به.
وقد رجّح ابن عطية (٧/ ٥١) القول الثاني، ولم يذكر مستندًا.

(91) قال ابن جُزَي: (مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ يحتملُ أن يُريدَ: ممَّا أمَر الله به على وجهِ العزمِ والإيجابِ، أو مِن مكارمِ الأخلاقِ الَّتي يعزِمُ عليها أهلُ الحزمِ والجِدِّ، ولفظُ العزمِ مصدرٌ يُرادُ به المفعولُ، أي: مِن معزوماتِ الأمورِ).
((تفسير ابن جزي)) (2/138).
ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/351).

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ.

أي: ولا تُمِلْ خَدَّك، وتُعرِضْ بوَجهِك عن النَّاسِ؛ تكَبُّرًا عليهم،[92] وتهاوُنًا واستِحقارًا لشَأنِهم.

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال لي النَّبيُّ – ﷺ –: ((لا تَحقِرَنَّ مِنَ المعروفِ شَيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاك بوَجهٍ طَلْقٍ)).[93]

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا.

أي: ولا تَمشِ في الأرضِ فَرِحًا مُتبَختِرًا.[94]

---

(92) اختلف السلف في معنى: ﴿ولا تصعر خدك﴾ على أقوال: الأول: أنّه الإعراض بالوجه تكبُّرًا.

الثاني: أنه التشديق.

الثالث: أنّه الإعراض عمَّن بينك وبينه خصومة وإحنة.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٨/ ٥٥٩) مستندًا إلى اللغة القولَ الأول، فقال: «وأصل الصعر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها، فيشبه به الرجل المتكبر على الناس.

ومنه قول عمرو بن كلثوم التغلبي:

وكنّا إذا الجبّار صعَّر خدَّه ...

أقمْنا له من مَيلِه فتقوَّما».

وبنحوه ابنُ كثير (٦/ ٣٣٩).

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٥٢) في الآية قولًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يريد أيضًا الضد، أي: ولا سؤالًا ولا ضراعة بالفقر».

ثم رجّح مستندًا إلى السياق القول الأول، فقال: «والأول أظهر؛ بدلالة ذكر الاختيال والفخر بعد».

(93) رواه مسلم (2626).

(94) قال القرطبي عن المرَح: (هو النَّشاطُ والمشْيُ فَرَحًا في غيرِ شُغلٍ وفي غيرِ حاجةٍ، وأهلُ هذا الخُلُقِ ملازِمونَ للفَخرِ والخُيَلاء، فالمرِحُ مختالٌ في مِشيَتِه).

((تفسير القرطبي)) (70/14).

كما قال تعالى: وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا [الإسراء: 37].

وقال سُبحانَه: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا [الفرقان: 63].

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُتكَبِّرٍ، مَزهُوٍّ، مُعجَبٍ بنَفْسِه، شديدِ الفَخرِ على النَّاسِ بما أُعطِيَ مِن النِّعَمِ.

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19).

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ.

أي: وتوسَّطْ، واعتَدِلْ في مِشيَتِك بلا تكَبُّرٍ ولا استِعجالٍ، بل امشِ بسَكينةٍ ووَقارٍ وتواضُعٍ، بلا سُرعةٍ ولا تباطُؤٍ.

وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ.

أي: واخفِضْ مِن صَوتِك، فلا ترفَعْه مِن غيرِ حاجةٍ.

إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ.

أي: إنَّ أقبَحَ الأصواتِ وأشنَعَها لَصَوتُ الحَميرِ إذا رفَعَت صَوتَها بالنَّهيقِ![95]

(95) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ على أقوال: الأول: أقبح.
الثاني: أشر.
وقد جمع ابنُ جرير (١٨/ ٥٦٥) بينهما مســتندًا إلى اللغة، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصــواب قول من قال: معناه: إن أقبح أو أشر الأصوات.
وذلك نظير قولهم إذا رأوا وجهًا قبيحًا أو منظرًا شنيعًا: ما أنكر وجه فلان، وما أنكر منظره».

سورةُ لُقمانَ

الآيات (20–24)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً
وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (20) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى
عَذَابِ السَّعِيرِ (21) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (24)

غَريبُ الكَلِماتِ:

وَأَسْبَغَ: أي: أتمَّ ووسَّعَ وأكمَلَ، وأصلُ (سبغ): يدُلُّ على تمامِ الشَّيءِ وكَمالِه.

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى: أي: بأوثَقِ الأسبابِ. والعُروةُ: ما يُتعلَّقُ به؛ نحوُ عُروةِ الدَّلْوِ والكُوزِ، والوُثقَى: المُحكَمةُ الشَّدِّ.

نَضْطَرُّهُمْ: أي: نُلجِئُهم ونَسوقُهم، أو نُورِدُهم على كُرهٍ منهم، والاضْطِرارُ: حَمْلُ الإنسانِ على ما يَضُرُّه، والاضطرارُ في الأصلِ: الإلجاءُ، يُقالُ: اضْطَرَّه إلى كذا، أي: ألجَأَه إليه، وأصلُ (ضرَّ) هنا: خلافُ النَّفْعِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (20).

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.

أي: ألم ترَوا -أيُّها النَّاسُ- أنَّ اللهَ وَحْدَه هو مَنْ ذلَّل لأجْلِكم وقيامِ مَصالحِكم ما في السَّمواتِ مِن شَمسٍ وقَمَرٍ ونُجومٍ وسَحابٍ ورياحٍ وغَيرِها، وما في الأرضِ مِن حَيواناتٍ وزُروعٍ وأشجارٍ وأنهارٍ وبحارٍ ومعادِنَ، وغيرِ ذلك مِن منافِعَ كثيرةٍ لا تُحصى.

كما قال تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ [النحل: 12، 13].

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً.

أي: وأتَمَّ عليكم نِعَمَه الكثيرةَ الوافيةَ، وأوسعَكم وغمَرَكم بها، ظاهِرةً كانت أو باطِنةً.[96]

(96) قيل: ظاهِرة على الألسُنِ قولًا، وعلى الجوارِحِ عَمَلًا، وباطِنة في القُلوبِ اعتِقادًا ومَعرِفةً.
وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (568/18).
وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ.
يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (318/7)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (526/6).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ.

وقيل: الظَّاهِرةُ: الَّتي نعلَمُ بها، والباطِنةُ: الَّتي تخفَى علينا.

وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البِقاعي، والسعدي، وابن عاشور.

يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (185/15)، ((تفسير السعدي)) (ص: 649)، ((تفسير ابن عاشور)) (175/21).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه.

يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (318/7).

قال ابنُ عاشور: (الظَّاهرةُ: الواضِحةُ.

والباطنةُ: الخفيَّةُ، وما لا يُعلَمُ إلَّا بدليلٍ، أو لا يُعلَمُ أصلًا.

وأصلُ الباطنةِ: المُستقرَّةُ في باطنِ الشَّيءِ، أي: داخله...

فكم في بدنِ الإنسانِ وأحوالِه مِن نِعَمٍ يَعلَمُها النَّاسُ أو لا يعلمُها بعضُهم، أو لا يعلمها إلَّا العلماءُ، أو لا يعلمُها أهلُ عصرٍ ثمَّ تنكشفُ لِمَن بعدَهم، وكِلا النَّوعَينِ أصنافٌ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ).

((تفسير ابن عاشور)) (175/21).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (499/3).

وقيل: ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً: أي: محسوسةً ومعقولةً، ما تَعرِفونه وما لا تَعرِفونه.

وممَّن اختار ذلك في الجملةِ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (215/4)، ((تفسير أبي السعود)) (74/7)، ((تفسير القاسمي)) (33/8).

وقيل: الظَّاهِرةُ: هي البَيِّنةُ للعِيانِ، والظَّاهِرةُ لكلِّ أحدٍ، والباطنةُ هي الَّتي لا يَعلمُها إلَّا الإنسانُ المنعَمُ عليه وحْدَه.

وأيضًا الظَّاهرةُ تعني أنَّه مِن الواضحِ أنَّها نعمةٌ، وأمَّا الباطنةُ فلا يَتبيَّنُ أنَّها نعمةٌ إلَّا فيما بعدُ، مِن خلالِ معرفةِ آثارِها.

قاله: ابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة لُقمان)) (ص: 121).

أي: ولكِنْ مع إسباغِ هذه النِّعَمِ على النَّاسِ، فثَمَّةَ مَن يُخاصِمُ منهم في اللهِ؛ كأن يخاصِمَ في وُجودِهِ، أو في توحيدِه، أو في أسمائِه وصِفاتِه، أو في دِينِه وأحكامِه وشَرْعِه، بلا عِلمٍ عِندَه، وبِغَيرِ هُدًى،(97) وبلا كِتابٍ مُبِينٍ للحَقِّ(98) يُبَيِّنُ صِحَّةَ دَعواه.

---

(97) قيل: المرادُ بقولِه: وَلَا هُدًى: أي: بغيرِ بيانٍ وحُجَّةٍ وبرهانٍ.

وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن الجوزي، وابن كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (568/18)، ((تفسير الثعلبي)) (9/7)، ((تفسير البغوي)) (335/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (224/3)، ((تفسير ابن كثير)) (347/6).

وقيل: المرادُ بقولِه: وَلَا هُدًى أي: مِن رسولٍ.

وممَّن اختاره: البيضاوي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (215/4)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 542)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (187/15)، ((تفسير القاسمي)) (33/8).

وقال السعدي: (إنَّه الهديُ الَّذي يَقتدي به بالمُهتدينَ).

((تفسير السعدي)) (ص: 649).

وقال ابن عاشور: (إنَّه التَّلَقِّي مِن عالِمٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (175/21).

(98) قال الزمخشري في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الحجِّ: (والمرادُ بالعِلمِ: العِلمُ الضَّروريُّ، وبالهدَى: الاستِدلالُ والنَّظرُ؛ لأنَّه يَهدي إلى المعرفةِ، وبالكتابِ المُنيرِ: الوحيُ).

((تفسير الزمخشري)) (146/3).

ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (488/7)، ((تفسير النسفي)) (429/2).

وقال الشوكاني معقبًا على هذا القولِ: (والأَولى حَمْلُ العلمِ على العمومِ، وحملُ الهدَى على معناه اللُّغَويِّ، وهو الإرشادُ. والمرادُ بالكتابِ المُنيرِ هو القرآنُ).

((تفسير الشوكاني)) (519/3).

وقال الرازي: (هذه أمورٌ ثلاثةٌ مرتَّبةٌ: العِلمُ والهدَى والكتابُ، والعِلمُ أعلَى مِن الهدَى، والهدَى مِن الكِتابِ، وبيانُه هو أنَّ العلمَ تدخُلُ فيه الأشياءُ الواضحةُ اللَّائحةُ الَّتي تُعلَمُ مِن غيرِ هدايةِ هادٍ، ثُمَّ الهدَى يدخُلُ فيه الَّذي يكونُ في كتابٍ والَّذي يكونُ مِن إلهامٍ ووحْيٍ، فقال تعالَى: يُجادِلُ ذلك المجادِلُ لا مِن عِلمٍ واضحٍ، ولا مِن هدًى أتاهُ مِن هادٍ، ولا مِن كتابٍ).

((تفسير الرازي)) (124/25).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا.

أي: وإذا قيل لأولئك المجادِلينَ في اللهِ: اتَّبِعوا ما أنزَلَ اللهُ على رَسولِه، قالوا مُعارِضينَ: لن نتَّبعَ ذلك، وإنَّما نتَّبعُ ما وجَدْنا عليه آباءَنا مِنَ الدِّينِ، ونقَلِّدُهم فيه؛ فإنَّهم كانوا على الحَقِّ!

أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ.

أي: أيتَّبِعونَ آباءَهم الضَّالِّينَ حتى لو كان الشَّيطانُ البَعيدُ مِنَ الرَّحمةِ، الشَّديدُ العداوةِ لهم: يَدعوهم بتَزيينِه الباطِلَ لهم إلى أن يُعذَّبوا في النَّارِ الَّتي تَستَعِرُ وتلتَهِبُ؟! فهل هذا مُوجِبٌ لاتِّباعِهم على طريقتِهم، أم أنَّ ذلك مُحَذِّرٌ مِن سُلوكِ سَبيلِهم؟!

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22).

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى.

أي: ومَن يُخلِصْ عَمَلَه وقَصْدَه لله وحْدَه، وهو مع إخلاصِه مُطيعٌ لله في أمْرِه ونَهْيِه كأنَّه يَراه، ومُتَّبِعٌ لشَريعةِ نبيِّه، ومُحسِنٌ إلى خَلْقِه: فقد تمسَّك بأَوثَقِ رِباطٍ يَتمسَّكُ به مَن يريدُ الفَوزَ والنَّجاةَ مِنَ الضَّلالِ والعَذابِ.

كما قال تعالى: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: 112].

وقال سُبحانَه: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا [البقرة: 256].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ – ﷺ – بارزًا يومًا للنَّاسِ، فأتاه جبريلُ... قال: ما الإحسانُ؟ قال: أن تعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراك)).[99]

وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ.

أي وإلى الله وَحْدَه تَرجِعُ نهايةُ كُلِّ أمرٍ؛ فأمورُ مَن أسلَمَ وَجهَه إلى اللهِ صائِرةٌ إلى اللهِ، ومَوكولةٌ إليه؛ فهو يَنصُرُهم ويُجازيهم إذا قَدِموا عليه جزاءً حَسَنًا وافيًا.

---

(99) رواه البخاري (50) واللفظ له، ومسلم (9).

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23).

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ.

أي ومَن كفَر باللهِ وبما جاءَه مِنَ الحقِّ، فلا يَحزُنْك –يا محمَّدُ– كُفرُه.

كما قال تعالى: وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران: 176].

وقال سُبحانَه: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ [النمل: 70].

إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا.

أي: إلينا وَحْدَنا مَصيرُهم، فنُخبِرُهم يومَ القيامةِ بما عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي، ونُجازيهم عليه.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

أي إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُخفي صُدورُهم مِنَ العَقائدِ الباطِلةِ، والإراداتِ السَّيِّئةِ، ولا تَخفَى على اللهِ منهم خافيةٌ.

نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (24).

نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا.

أي: نمتّعُ هؤلاء الكافِرينَ في الدُّنيا تمتيعًا قَليلًا.

ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ.

أي: ثمَّ نُورِدُهم على كُرهٍ منهم إلى عذابٍ شَديدٍ ثَقيلٍ، ونُلجِئُهم إليه.(100)

كما قال تعالى: لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [آل عمران: 196، 197].

وقال سُبحانه: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [يونس: 69، 70].

---

(100) قال البقاعي: (لا يَنقَطِعُ عنهم أصلًا، ولا يجِدونَ لهم منه مُخلَصًا مِن جهةٍ مِن جِهاتِه، فكأنَّه في شِدَّتِه وثِقْلِه جِرمٌ غَليظٌ جِدًّا إذا بَرَك على شَيءٍ لا يُقدَرُ على الخَلاصِ منه).

((نظم الدرر)) (192/15).

وقال ابنُ عثيمين: (اعلَمْ أنَّ هذا الاضطِرارَ يكونُ عندَ خروجِ الرُّوحِ، ويكونُ كذلك في الآخرة).

((تفسير ابن عثيمين – سورة لُقمان)) (ص: 146).

سورةُ لُقمانَ

الآيات (25–27)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
(25) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
(27)

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25).

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.

أي: ولَئِنْ سألْتَ –يا محمَّدُ– هؤلاء الكافِرينَ: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ.

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ.

أي: قُلْ لهم: الحَمدُ لله الَّذي أظهَرَ الحُجَّةَ، وأقامها عليكم باعتِرافِكم.

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ استِحقاقَ اللهِ تعالى للحَمدِ، ولا يَتدَبَّرونَ أنَّ الخالِقَ هو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26).

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: لله وَحْدَه جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، فهو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ ومالِكُه ومُدَبِّرُه.

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

أي: إنَّ اللهَ هو الغنيُّ عمَّا سِواه، المحمودُ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، وعلى نِعَمِه، وتدبيرِ خَلْقِه.

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27).

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ.

أي: ولو فُرِضَ أنَّ كُلَّ أشجارِ الأرضِ بُرِيتْ أقلامًا، وصار البَحرُ لها مِدادًا، ويَمُدُّ البَحرَ إذا نَشِفَ سَبعةُ أبحُرٍ؛ لِيُكتَبَ كلامُ اللهِ بتلك الأقلامِ والمِدادِ؛ لانتَهَت تلك الأقلامُ، وفَنِيَ ذلك المِدادُ، ولم تَنفَدْ كَلِماتُ اللهِ سُبحانَه وتعالى![101]

كما قال تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا [الكهف: 109].

---

(101) اختلف في نزول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ الآية على أقوال:

الأول: أنها نزلت بسبب سؤالٍ سأله أحبار اليهود لرسول الله – ﷺ –.

الثاني: أنها نزلت بسبب أن المشركين قالوا في القرآن: إنما هو كلام يوشك أن ينفد وينقطع.

ورجَّح ابنُ عطية (٧/ ٥٧) مستندًا إلى أحوال النزول القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق سعيد بن جبير وما في معناه، فقال: «وهذا هو القول الصحيح، والآية مدنية».

وعلَّق ابنُ كثير (١١/ ٧٨) على القول الأول بقوله: «وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية لا مكية، والمشهور أنها مكية».

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ غالِبٌ وقاهِرٌ لكُلِّ شَيءٍ، فلا مانِعَ لِما أراد، ولا رادَّ لحُكمِه، حَكيمٌ في أفعالِه وأقوالِه وشَرْعِه، وفي تدبيرِ عِبادِه.

سورةُ لُقمانَ

الآيات (28–30)

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)

غَريبُ الكَلِماتِ:

يُولِجُ: أي: يُدخِلُ، أو يأخُذُ منه، فيَطولُ ذلك ويَقصُرُ هذا، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ.

وَسَخَّرَ: أي: ذلَّل، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصل (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28).

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ.

أي: ما خَلْقُكم أوَّلَ مَرَّةٍ ولا بَعثُكم يومَ القيامةِ إلَّا كخَلْقِ نَفْسٍ واحِدةٍ، وبَعثِ نفسٍ واحدةٍ؛ لكَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، فالقَليلُ والكثيرُ سَواءٌ بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه سُبحانَه.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم: 27].

وقال سُبحانَه: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 81، 82].

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ يَسمَعُ جَميعَ المَسموعاتِ، ومِن ذلك سَمْعُه لِما يقولُ المُشرِكون ويَفتَرونه على رَبِّهم، مِن ادِّعائِهم له الشُّرَكاءَ وغَيرَ ذلك، وهو مُبصِرٌ لجَميعِ المبصَراتِ، ومِن ذلك إبصارُه ما يَعمَلُه المُشرِكونَ وغَيرُهم مِنَ الأعمالِ، وهو مُجازيهم على ذلك.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ.

أي: ألَمْ تَرَ -يا مُحَمَّدُ[102] - أنَّ اللهَ يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ؟[103]

---

(102) قال ابنُ عطية: (هذا تنبيهٌ خُوطِبَ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ به جميعُ العالَمِ).

((تفسير ابن عطية)) (354/4).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: 171).

وقال ابنُ جرير: (خرَج هذا الكلامُ خِطابًا لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، والمَعْنِيُّ به المشركون؛ وذلك أنَّه تعالى ذِكْرُه نَبَّهَ بقولِه: أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ على موضعِ حُجَّتِه- مَنْ جَهِلَ عَظَمتَه، وأشرَكَ في عِبادَتِه معه غَيْرَه، يدُلُّ على ذلك قولُه: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ).

((تفسير ابن جرير)) (577/18).

(103) وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعدي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ أنَّه يأخُذُ مِنَ اللَّيلِ فيطولُ النَّهارُ زَمَنَ الصَّيفِ، وأنَّه يأخُذُ مِنَ النَّهارِ فيطولُ اللَّيلُ زمَنَ الشِّتاءِ.

وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (438/3)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (681/2)، ((تفسير ابن كثير)) (349/6، 350).

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ.

أي: وذلَّل اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ؛ تحقيقًا لمصالحِ العِبادِ ومَنافِعِهم في دينِهم ودُنياهم.

كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

أي: كُلٌّ مِنَ الشَّمسِ والقَمَرِ يَجريانِ في السَّماءِ إلى وقتٍ محدَّدٍ مَعلومٍ.[104]

وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

أي: وأنَّ اللهَ بما تعمَلونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ: ذو خِبرةٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، وهو مجازيكم عليها.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/576).

قال ابنُ عثيمين بعد ذِكرِ القولَين: (وكِلاهما معنًى صَحيحٌ).

((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: 171، 172).

(104) قيل: المرادُ بالأجَلِ المسمَّى: يومُ القيامة.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسعدي، وابن عاشور.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الأجَلُ المسمَّى للشَّمسِ هو آخِرُ السَّنةِ، وللقَمَرِ آخِرُ الشَّهرِ.

وممَّن قال بهذا المعنى: البيضاوي، والبقاعي.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (4/217)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/200).

قال ابنُ كثير: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قيل: إلى غايةٍ محدودةٍ.

وقيل: إلى يومِ القيامةِ.

وكِلا المعنيَينِ صَحيحٌ).

((تفسير ابن كثير)) (6/350).

كما قال تعالى: وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا [الطلاق: 12].

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30).

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ.

أي: ذلك الَّذي وَصَف اللهُ تعالى مِن الأفعالِ الهائِلةِ والأوصافِ الباهِرةِ؛ كإيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ، وغَيرِ ذلك: إنَّما فَعَله بسَبَبِ أنَّه الإلهُ الحَقُّ القادِرُ على ذلك، الَّذي يَستَحِقُّ العبادةَ وحْدَه دونَ ما سِواه.

وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ.

أي: وأنَّ ما يَدعوه المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغَيرِها: هو الباطِلُ الذي يَضمَحِلُّ فلا يبقَى، ولا تنفَعُ عِبادتُه.

وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

أي: وأنَّ اللهَ هو العَلِيُّ على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه وصِفاتِه، الكبيرُ في ذاتِه وصفاتِه، وكُلُّ شَيءٍ دونَه مُتذَلِّلٌ مُنقادٌ، وله مُتصاغِرٌ.

كما قال تعالى: وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة: 255].

وقال سُبحانَه: الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ [الرعد: 9].

سورةُ لُقمانَ

الآيتان (31–32)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

كَالظُّلَلِ: أي: كقِطَعِ السَّحابِ أو كالجِبالِ، وأصلُ (ظلل): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشَيءٍ.

مُقْتَصِدٌ: المقتصِدُ: الفاعلُ للقَصدِ، وهو التَّوسُّطُ بينَ طرَفَينِ، وقصَدَ في الأمرِ: إذا لم يجاوِزْ فيه الحدَّ، ورضِيَ بالتَّوسُّطِ، وأصلُ معنى الاقتصادِ: التَّوسُّطُ في الأمرِ، وأصلُ (قصد) هنا: يدُلُّ على وصل يدل إتيانِ شَيءٍ، وأَمِّه.

خَتَّارٍ: أي: غَدَّارٍ، والخَترُ أقبَحُ الغدرِ، وأصلُ (ختر): يدُلُّ على تَوانٍ وفُتورٍ؛ وذلك أنَّه إذا خَترَ فقدْ قَعَدَ عن الوَفاءِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ السُّفُنَ تَجري في البَحرِ بلُطفِ اللهِ وتَسخيرِه؛ نعمةً منه على عِبادِه.(105)

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ [الحج: 65].

لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ.

أي: لِيُرِيَكم اللهُ بعضَ آياتِه، فتَستَدِلُّوا بها على وُجودِه ووَحدانيَّتِه، وعِلمِه وقُدرتِه، وغيرِ ذلك.

---

(105) قال ابن عطية: (المخاطَبُ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ النَّاسُ أجمَعُ...

وقَولُه: بِنِعْمَةِ اللَّهِ يحتَمِلُ أن يريدَ ما تحمِلُه السُّفُنُ مِنَ الطَّعامِ والأرزاقِ والتِّجاراتِ؛ فالباءُ للإلصاقِ، ويحتَمِلُ أن يريدَ الرِّيحَ وتَسخيرَ اللهِ البَحرَ، ونحوَ هذا؛ فالباءُ باءُ السَّبَبِ).

((تفسير ابن عطية)) (4/355، 356).

قال ابن عثيمين: (والآيةُ تحتَمِلُ المعنيَينِ بدُونِ مُناقَضةٍ).

((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: 183).

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

أي: إنَّ في جَريِ الفُلكِ في البَحرِ لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ واضِحاتٍ على ما له سُبحانَه مِن صِفاتِ الكَمالِ، يَستَدِلُّ بها كُلُّ كثيرِ الصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، وعن معاصيه؛ وكُلُّ كثيرِ الشُّكرِ للهِ على نِعَمِه.

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32).

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

أي: وإذا علا المُشركِينَ عندَ رُكوبِهم البَحرَ مَوجٌ يُغَطِّيهم، كالجِبالِ أو الغَمامِ الَّذي يُظِلُّ مَن تحتَه، فخافوُا الغَرَقَ والهلاكَ: دَعَوُا اللهَ وَحْدَه أن يُنَجِّيَهم، ولم يَستغيثوا بغَيرِه.

كما قال تعالى: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [العنكبوت: 65].

فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ.

أي: فلمَّا نجَّاهم اللهُ مِنَ الغرَقِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ، فمنهم مُقتَصِدٌ.(106)

---

(106) قيل: المرادُ: فمنهم متوَسِّطٌ في الكُفرِ والظُّلمِ، خَفَضَ مِن غُلَوائِه، وانزجَرَ بعضَ الانزجارِ، فلم يُسرِفْ في كُفرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، والرسعني، وابن عاشور، وذكره ابنُ جُزي احتمالًا.

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ.

أي: وما يَكفُرُ بأدِلَّتِنا وحُجَجِنا، ويُكَذِّبُ بها ويُنكِرُها إلَّا كلُّ غدَّارٍ شَديدِ الغَدرِ بعَهدِه، جَحودٍ عَظيمِ الجَحدِ لنِعَمِ رَبِّه؛ فهو يَنقُضُ ما عاهَدَ اللهَ عليه، ولا يَشكُرُه على ما آتاه مِن نِعَمِه.(107)

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (503/3)، ((تفسير الرسعني)) (66/6)، ((تفسير ابن عاشور)) (191/21)، ((تفسير ابن جزي)) (140/2).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ، والكلبيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (580/18)، ((تفسير الثعلبي)) (322/7).

وقيل: المرادُ بالمُقتَصِدِ: المتوسِّطُ في إيمانِه، فلمْ يَقُمْ بشُكرِ الله على وَجهِ الكَمالِ؛ فيَكونُ ذلك مِن بابِ الإنكارِ على مَن شاهَدَ تلك الأهوالَ والأمورَ العِظامَ والآياتِ الباهراتِ في البَحرِ، ثمَّ بعدَما أنعَمَ عليه مِن الخلاصِ كان ينبغي أن يقابِلَ ذلك بالعَمَلِ التَّامِّ، والدُّؤوبِ في العبادةِ، والمُبادَرةِ إلى الخَيراتِ، فمَنِ اقتصَدَ بعدَ ذلك كان مُقَصِّرًا والحالةُ هذه.

ذكر هذا المعنى احتمالًا: ابنُ جُزَي، وابن كثير، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (140/2)، ((تفسير ابن كثير)) (351/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 652).

وقيل: المرادُ: عَدْلٌ مُوفٍ في البَرِّ بما عاهَدَ الله عليه في البحرِ مِنَ التَّوحيدِ وإخلاصِ الدِّينِ لله، يعني: ثَبَتَ على إيمانِه.

وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والخازن، والعليمي، والشربيني، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (439/3)، ((تفسير السمعاني)) (239/4)، ((تفسير البغوي)) (592/3)، ((تفسير الخازن)) (400/3)، ((تفسير العليمي)) (316/5)، ((تفسير الشربيني)) (198/3)، ((تفسير الشوكاني)) (281/4).

(107) قيل: المرادُ أنَّ نِعَمَ الله تعالى على العِبادِ كأنَّها عُهودٌ ومِنَنٌ يَلزَمُ عنها أداءُ شُكرِها، فمَن كفَر ذلك وجحَدَ به فكأنَّه خَتَرَ (غدَر) وخانَ.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (355/4، 356).

وقيل: المرادُ أنَّ كلَّ إنسانٍ قد عاهَدَ ربَّه بمُقتضَى فِطرَتِه أن يُؤمِنَ به، فإذا كفَر صار غادرًا لم يَفِ بالعهد.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين – سورة لقمان)) (ص: 190).

وقيل: المرادُ: نقْضُ العهدِ الفِطْرِيِّ، ونقْضُ عقدِ العزيمةِ وقتَ الهَولِ البَحْرِيِّ، ورفْضُ ما كان عليه في البحرِ.

وممَّن اختاره: القنوجي، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (301/10)، ((تفسير القاسمي)) (35/8).

كما قال تعالى: وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ [العنكبوت: 47].

وقال سُبحانَه: وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ [العنكبوت: 49].

سورةُ لُقمانَ

الآيتان (33–34)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

غَريبُ الكَلِماتِ:

تَغُرَّنَّكُمُ: أي تخدَعَنَّكم، والغِرَّةُ: الغفلةُ، ويُقالُ: غَرِرْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَه، والغَرُّ والغُرورُ: إظهارُ الأمرِ المضِرِّ في صورةِ النَّافِعِ، أو: إظهارُ النُّصحِ مع إبطانِ الشَّرِّ، والغُرورُ بالضمِّ: الباطلُ، والْغَرُورُ: بالفتحِ: الشَّيطانُ، أو: كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ مِن شيطانٍ أو دنيا أو مالٍ وغيرِ ذلك، وأصلُ ذلك مِن (الغُرِّ)، وهو الأثرُ الظَّاهرُ مِن الشَّيءِ.

الْغَيْثَ: أي: المطرَ، أو: هو مطرٌ في إبَّانِه وإلَّا فمطرٌ. وسُمِّيَ المطرُ غَيْثًا؛ لأنَّه يُغيثُ الخلْقَ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ.

أي: يا أيُّها النَّاسُ اجعَلوا بيْنَكم وبينَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه.

وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ.

أي: واخشَوا يومَ القيامةِ الَّذي لا يُغْني فيه والِدٌ عن وَلَدِه.

وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا.

أي: ولا مولودٌ يُغْني فيه عن والِدِه شَيئًا.

كما قال سُبحانَه: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [عبس: 34 – 37].

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ.

أي: إنَّ ما وعَدَ اللهُ عِبادَه مِن البَعثِ يومَ القيامةِ واقِعٌ لا محالةَ.

فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا.

أي: فلا تَخدَعنَّكم الحياةُ الدُّنيا بزينتِها ولَذَّاتِها عن التَّزَوُّدِ والاستِعدادِ للآخِرةِ.

وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ.

أي: ولا يَخدَعَنَّكم الشَّيطانُ[108] فيَصرِفَكم عن طاعةِ اللهِ، ويَغُرَّكم بحِلمِ اللهِ وإمهالِه، ويُمَنِّيَكم بالأمانيِّ الباطِلةِ.

---

(108) ممَّن اختار أنَّ الغَرورُ هو الشَّيطانُ: الواحدي، والسمعاني، وابن القيِّم، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/447)، ((تفسير السمعاني)) (4/240)، ((الرُّوح)) لابن القيم (ص: 244)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (15/214)، ((تفسير الشوكاني)) (4/282)، ((تفسير القاسمي)) (8/36)، ((تفسير السعدي)) (ص: 652)، ((تفسير ابن عاشور)) (21/195)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (7/545)، ((تفسير ابن عثيمين – سورة لقمان)) (ص: 197-199).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/583)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (6/530).

قال الشنقيطي: (سُمِّي الشيطانُ غرورًا؛ لكثرةِ غرورِه للآدَميِّينَ بتزيينِه ووساوسِه).

((العذب النمير)) (5/107).

وقيل: الغَرورُ هو ما غَرَّ الإنسانَ مِن شَيءٍ، كائنًا ما كان؛ شيطانًا كان، أو إنسانًا، أو دُنيا.

وممَّن قال بهذا المعنى: أبو عُبيدةَ، وابنُ جرير، ومكِّي.

يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (2/129)، ((تفسير ابن جرير)) (18/582)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (9/5740).

قال الرازي: (قال تعالى: وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ يعني: الدُّنيا؛ لا يَنْبَغي أنْ تَغُرَّكم بنفْسِها، ولا يَنْبَغي أنْ تغترُّوا بها، وإنْ حَمَلكم على مَحَبَّتِها غارٌّ مِن نفسٍ أمَّارةٍ أو شيطانٍ).

((تفسير الرازي))

كما قال تعالى: يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا [النساء: 120].

وقال سُبحانَه: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ [الأعراف: 27].

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [فاطر: 5، 6]

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34).

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه عِندَه عِلمُ وَقتِ القيامةِ، الَّذي تقومُ فيه.

كما قال سُبحانَه: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً... [الأعراف: 187].

وقال عزَّ وجلَّ: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ [فصلت: 47].

وقال تعالى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ... [الأنعام: 59].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((خَمسٌ مِنَ الغَيبِ لا يَعلَمُهنَّ إلَّا اللهُ، ثمَّ قرأ: إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)).(109)

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((مَفاتِحُ الغَيبِ خَمسٌ: إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)).(110)

وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ.

أي: ويُنَزِّلُ اللهُ وَحْدَه المطَرَ بقُدرتِه، ويَعلَمُ وَحْدَه وَقْتَ نُزولِه، وغيرَ ذلك مِن شُؤونِه.

وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ.

أي: ويَعلَمُ اللهُ وَحْدَه ما في أرحامِ الأمَّهاتِ مِمَّا يُريدُ اللهُ أن يَخلُقَه فيها.

كما قال تعالى: اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ [الرعد: 8].

وقال سُبحانَه: وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ [فصلت: 47].

---

(109) رواه البخاري (4777)، ومسلم (10) واللفظ له.

(110) رواه البخاري (4627).

وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا.

أي: ولا تدري نفْسٌ ما الَّذي ستَكسِبُه في يومِ غَدٍ مِن كسْبِ دينِها ودُنياها؛ فاللهُ وَحْدَه يَعلَمُ ذلك.

عن مَسروقٍ، عن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها قالت: (مَن حدَّثك أنَّه يَعلَمُ ما في غدٍ، فقد كَذَب، ثمَّ قرأَتْ: وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا).[111]

وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ.

أي: ولا تَدري نَفْسٌ في أيِّ أرضٍ يكونُ مَوتُها؛ فاللهُ وَحْدَه مَن يختَصُّ بعِلمِ ذلك.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، مُحيطٌ بالظَّواهِرِ والبواطِنِ، والخفايا والسَّرائِرِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

(111) رواه البخاري (4855) واللفظ له، ومسلم (177).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ السَّجْدَةِ

سُورَةُ السَّجْدَةِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بعدَّةِ أسماءٍ؛ منها:

1- سورةُ السَّجدةِ.[112]

2- سورةُ (الم * تَنْزِيلُ السَّجْدَةِ):

فعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ - ﷺ - يَقرأُ في الجُمُعةِ في صلاةِ الفَجرِ الم * تَنْزِيلُ السَّجْدَةَ، وهَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ)).[113]

---

(112) سُمِّيَت سورةَ السَّجدةِ؛ لاشتِمالِها على سَجدةِ التِّلاوةِ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (373/1).

قال ابن عاشور: (أشهرُ أسماءِ هذه السُّورةِ هو سورةُ السَّجدةِ، وهو أخصَرُ أسمائِها، وهو المكتوبُ في السَّطرِ المجعولِ لاسمِ السُّورةِ مِن المصاحفِ المُتداوَلةِ.

وبهذا الاسمِ تَرجَم لها التِّرمذيُّ في «جامِعِه»، وذلك بإضافةِ كلمةِ سورةٍ إلى كلمةِ السَّجدةِ.

ولا بُدَّ مِن تقديرِ كلمةِ «الم» محذوفةً للاختصارِ؛ إذْ لا يَكفي مجرَّدُ إضافةِ «سورةٍ» إلى «السَّجدةِ» في تعريفِ هذه السُّورةِ، فإنَّه لا تكونُ سجدةٌ مِن سجودِ القرآنِ إلَّا في سورةٍ مِن السُّوَرِ).

((تفسير ابن عاشور)) (201/21).

وقال البِقاعي: (اسمُها السَّجدةُ مُنطَبِقٌ على ذلك بما دَعَت إليه آياتُها مِن الإخباتِ، وتَركِ الاستكبارِ).

((نظم الدرر)) (222/15).

(113) أخرجه البخاري (891) واللفظ له، ومسلم (880).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

استِحبابُ القراءةِ بها في صلاةِ الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ.

وذلك لحديثِ أبي هُريرةَ المتقدِّمِ.(114)

سورةُ السَّجْدةِ مَكِّيَّةٌ،(115) وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.(116)

مِن أبرزِ المقاصِدِ الَّتي تَضمَّنَتْها سورةُ السَّجْدةِ:

1- بَيانُ عَظَمةِ اللهِ تعالى في صِفاتِه، وكَمالِ قُدرتِه في الخَلقِ والأمرِ، والبَعثِ والجَزاءِ.

2- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ؛ لأنَّه جامِعُ الهُدى الَّذي تضمَّنَتْه هذه السُّورةُ وغيرُها.

---

(114) والحِكمةُ في استِحبابِ قراءةِ سورةِ (السجدةِ) و(الإنسانِ) في فجرِ يومِ الجمعةِ لِما اشتملَتْ عليه هاتان السُّورتانِ ممَّا كان ويكونُ مِن المبدأِ والمَعادِ، وحشـرِ الخلائقِ، وبَعْثِهم مِن القبورِ إلى الجنَّةِ والنَّارِ، ففيهما بَدْءُ خلْقِ الإنسانِ، وآدمُ خُلِق يومَ الجُمُعةِ، وفيهما ذِكرُ القيامةِ، وفي يومِ الجمعةِ تقومُ السَّاعةُ؛ فاستُحِبَّ قراءةُ هاتَينِ السُّورتَينِ في هذا اليوم تذكيرًا للأمَّةِ بما كان فيه، ويكونُ.

يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (206/24)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (63/4)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (408/1).

(115) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاث آياتٍ منها، مِن قولِه تعالى: أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ... إلى تمامِ الآياتِ الثَّلاثِ [السجدة: 18- 20].

وقيل: إلَّا خَمسَ آياتٍ، مِن قولِه تعالى: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ [السجدة: 16] إلى قولِه تعالى: الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [السجدة: 20].

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (589/18)، ((تفسير الماوردي)) (352/4)، ((تفسير الزمخشري)) (506/3).

(116) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والفيروزابادي.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (437/3)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (373/1).

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ الَّتي تناوَلَتْها سورةُ السَّجْدةِ:

1- التَّنويهُ بالقُرآنِ وبيانُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، والرَّدُّ على المُشرِكينَ في ادِّعائِهم أنَّه مُفترًى.

2- ذِكرُ انفِرادِ اللهِ تعالى بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ، وبيانُ بعضِ مَظاهرِ قُدرتِه، وبديعِ خَلقِه، ونشأةِ الإنسانِ.

3- عَرْضُ جانبٍ مِن شُبهاتِ المشركينَ حوْلَ البَعثِ مع الرَّدِّ عليها.

4- عَرضُ مَشهَدٍ مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ: مَشهَدِ المجرِمينَ وهم بيْنَ يدَيِ اللهِ يومَ القيامةِ.

5- ذِكرُ بعضِ صفاتِ المؤمنينَ، وما أعَدَّه اللهُ لهم مِن نعيمٍ، وما أعدَّه للفاسِقينَ مِن نارِ الجَحيمِ.

6- الإشارةُ إلى موسى عليه السَّلامُ، وما امتَنَّ اللهُ به عليه مِن إعطائِه التَّوراةَ، وما امتنَّ به على الصَّالِحينَ مِن قومِه؛ مِن جَعْلِهم أئمَّةً.

7- دعوةُ المشركينَ إلى التَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ في آياتِ اللهِ.

8- حكايةُ جانبٍ مِن سفاهاتِ المشركين، مع أمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالرَّدِّ عليهم وتهديدِهم.

9- أمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم، ووعْدُه بالنَّصرِ عليهم، وأن يَنتظِرَ.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

الآيات (1–5)

الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ
كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5)

غَريبُ الكَلِماتِ:

لَا رَيْبَ فِيهِ: أي: لا شكَّ فيه، والرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو شكٌّ مع قلَقٍ وريبةٍ، وهو مصدرُ (رابَني الشَّيءُ): إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وحقيقةُ الرِّيبةِ: قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شكٍّ، أو شكٍّ وخَوفٍ.

افْتَرَاهُ: أي: اختلَقه، وكذَبه، وافتعَله، والافتراءُ: الاختلاقُ، ومنه قيل: افترى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفه بما ليس فيه، وأصلُ (فري): قطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ.

نَذِيرٍ: بمعنى مُنذِرٍ، أي: مُحذِّرٍ، والإنذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يكادُ يكونُ إلَّا في التَّخويفِ، وأصلُ (نذر): تخويفٌ.

اسْتَوَى: أي: عَلا، وارتَفَع، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ، واعتِدالٍ بينَ شيئَينِ.

وَلِيٍّ: أي: ناصرٍ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ.

شَفِيعٍ: أي: شافعٍ، يُقالُ: شفَع لِفُلانٍ: إذا جاء مُلتمِسًا مَطلَبَه، ومُعِينًا له؛ وأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه.

يُدَبِّرُ: أي: يَقضي ويُمضي، والتَّدبيرُ: تنزيلُ الأمورِ في مراتبِها على أحكامِ عَواقبِها، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه، خِلافُ قُبُلِه.

يَعْرُجُ: أي: يَصعَدُ، وأصلُ **(صعد)**: يدُلُّ على ارتفاعٍ ومَشَقَّةٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

الم (1).

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّومِ.

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2).

أي: هذا القُرآنُ لا شكَّ أنَّه نَزَل مِن عندِ اللهِ الخالِقِ المالِكِ المدَبِّرِ لجَميعِ العالَمينَ.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3).

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ.

أي: بل أيَقولُ المُشرِكونَ: اختلَقَ محمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبَه إلى اللهِ كَذِبًا؟!

بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ.

أي: ليس الأمرُ كما يَقولونَ؛ فالقُرآنُ هو الصِّدقُ الثَّابِتُ المنَزَّلُ إليك مِن عندِ رَبِّك يا محمَّدُ.

لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ.

أي: لِتُنذِرَ بالقُرآنِ وتُحَذِّرَ به قومًا لم يأتِهم رَسولٌ يُنذِرُهم مِن قَبْلِك.

كما قال تعالى: لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ [يس: 6].

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ.

أي: لعلَّهم يَعرِفونَ الحقَّ ويُؤمِنونَ به ويتَّبِعونَه.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4).

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.

أي: المعبودُ الَّذي لا تَصلُحُ العِبادةُ إلَّا له: هو الَّذي أوجَدَ السَّمواتِ السَّبْعَ والأرَضِينَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ؛ أوجَدَها مِنَ العَدَمِ بتَقديرٍ ونِظامٍ.

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ.

أي: ثمَّ علا اللهُ تعالى وارتفَع على عَرشِه كما يَليقُ بجَلالِه سُبحانَه.

كما قال تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه: 5].

مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ.

أي: ليس لكم ممَّن سِوَى اللهِ وَلِيٌّ يتولَّى أمْرَكم وينفعُكم، ولا شَفيعٌ يَشفَعُ لكم عندَ رَبِّكم.

أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ.

أي: أفلا تتذكَّرونَ ما تَعلَمونَه مِن أنَّه الخالِقُ وحْدَه الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، واستوى على عَرشِه، ومِن أنَّه لا حُجَّةَ لِشَيءٍ ممَّا أشرَكتُموه به؟! فهو الَّذي انفردَ بتَدبيرِكم وتَولِّيكم، وله الشَّفاعةُ كُلُّها، وهو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ

(5).

أي: يُدَبِّرُ اللهُ أمرَ خَلْقِه بما يَشاءُ، فيَنزِلُ تَقديرُه وقَضاؤُه مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، ثُمَّ يَصعَدُ[117] إليه مِنَ الأرضِ إلى السَّماءِ في[118] يومٍ كان مِقدارُه ألْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَحسُبونَ مِن أيَّامِكم في الدُّنيا.[119]

---

(117) اختلف في معنى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ﴾ في هذه الآية على خمسة أقوال: الأول: معناه أن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض، ويصعد من الأرض إلى السماء في يوم واحد، وقدر ذلك ألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا، لأن ما بين الأرض إلى السماء خمس مائة عام، وما بين السماء إلى الأرض مثل ذلك، فذلك ألف سنة.

الثاني: يُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يَعرُج إليه في يوم من الأيام الستة التي خلق الله فيهنَّ الخَلْق، وكل يوم مِن هذه كألف سنة مما تعدون من أيامكم.

الثالث: يُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بالملائكة، ثم تَعرُجُ إليه الملائكة في يومٍ كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا.

الرابع: يُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض في يومٍ، كان مقدار ذلك التدبير ألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا، ثم يَعرُجُ إليه ذلك التدبير الذي دبَّره.

الخامس: يُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يَعرُجُ إلى الله في يومٍ كان مقداره ألف سنة، مقدار العروج ألف سنة مما تعدون.

ووجَّه ابنُ عطية (٧/ ٦٧ بتصرف) قول مجاهد من طريق ابن جريج –وهو القول الرابع– بقوله: «فالمعنى أن الأمور تُنَفَّذ عند الله تعالى لهذه المدة، ثم تصير إليه آخرًا؛ لأن عاقبة الأمور إليه».

وقد ذكر ابنُ جرير القول الرابع، وأدرج تحته أثر مجاهد، وجعله قولًا واحدًا، وأما ابنُ عطية فقد جعله قولين عن مجاهد، الأول: أن التدبير المنقضي في يوم القيامة ألف سنة لو دبره البشر.

والثاني: أن الله تعالى يدبر ويلقي إلى الملائكة أمور ألف سنة من عَدِّنا.

ورجَّح ابنُ جرير (١٨/ ٥٩٦) مستندًا إلى أنّه الأظهر من اللفظ القول الأول، وهو قول مجاهد من طريق ليث، وابن عباس من طريق أبي الحارث عن عكرمة، والضحاك من طريق جويبر، وعكرمة من طريق سفيان عن سماك، وقتادة، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن ذلك أظهر معانيه، وأشبهها بظاهر التنزيل».

وانتقد ابنُ عطية (٧/ ٦٨) القول الثاني مستندًا إلى ألفاظ الآية والسنة، فقال: «وهذا قولٌ ضعيف مكرهةٌ ألفاظ هذه الآية عليه، رادَّةٌ له الأحاديث التي تُثْبِت أيام خلق الله تعالى المخلوقات».

ثم ذكر قولًا غير ما ذُكِر عن فرقة بأن المعنى: يُدبِّر أمر الشمس في أنها تصعد وتنزل في يوم، وذلك قدر ألف سنة.

وانتقده قائلًا: «وهذا أيضًا ضعيف».

(118) قال الشوكاني: (هذا اليومُ هو عبارةٌ عن زَمانٍ يتقدَّرُ بألْفِ سَنَةٍ، وليس المرادُ به مُسمَّى اليومِ الَّذي هو مُدَّةُ النَّهارِ بينَ ليلتَينِ، والعَرَبُ قد تعبِّرُ عن المدَّةِ باليوم).

((تفسير الشوكاني)) (4/286).

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا [الطلاق: 12].

وقال ابن عثيمين: («في» للظَّرفيَّةِ، ولا تَستلزِمُ الاستيعابَ، يعني: ليس بلازمٍ أنَّ الأمرَ يَنزِلُ مَثلًا عندَ صلاةِ الفَجرِ، ولا يَعرُجُ إلَّا في الغروبِ؛ فقد يَنزِلُ ويَعرُجُ في لحظةٍ حَسَبَ ما أراد اللهُ عزَّ وجلَّ).

((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: 36، 37).

(119) قال السمعاني: (ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فيه قولانِ؛ أحدُهما: ثمَّ يَعرُجُ المَلَكُ إليه بعدَ نُزولِه بالأمرِ.

والقولُ الثَّاني: ثمَّ يعرُجُ إليه أي: يَعرُجُ الأمرُ إليه، ومعنى عُروجِ الأمرِ إليه: صَيرورةُ الأمرِ كلِّه إليه، وسقوطُ أمرِ الخَلقِ كلِّهم).

((تفسير السمعاني)) (4/243).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/437، 438).

ممَّن اختار أنَّ المعنَى: عروجُ ذلك الأمرِ إليه ونزولُه إلى الأرضِ في ألْفِ سَنةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مِن أيَّامِكم: ابنُ جرير، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/596)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 545)، ((تفسير الشوكاني)) (4/286)، ((تفسير السعدي)) (ص: 654).

وقال العُلَيمي: (ينزلُ المَلَكُ بالوحيِ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، ثمَّ يرجِعُ إلى مَقَرِّهِ منها).

((تفسير العليمي)) (5/321).

وقال الواحدي: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ يعني: القَضاءَ مِنَ السَّماءِ فيُنزِلُه إلى الأرضِ مدَّةَ أيَّامِ الدُّنيا ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ أي: يَرجِعُ الأمرُ والتَّدبيرُ إلى السَّماءِ ويعودُ إليه بعدَ انقضاءِ الدُّنيا وفنائِها فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وهو يومُ القيامةِ).

((الوجيز)) (ص: 852).

سُورةُ السَّجْدةِ

الآيات (6–11)

ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ
الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ
رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (9) وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي
الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ
الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

نَسْلَهُ: أي: ولدَه وذرِّيَّته، وسُمِّي نسلًا لأنَّه يَنسَلُّ -أي: ينفصلُ- مِن أصلِه، والنَّسْلُ: الانفصالُ عن الشيءِ، وتَناسَلوا: وُلِد بعضُهم مِن بعضٍ، وأصلُ (نسل): يَدُلُّ على سَلِّ شيءٍ وانسلالِه.

سُلَالَةٍ: السُّلالةُ: فُعالةٌ مِن السَّلِّ، وهو استِخراجُ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، ومِن هذا يُقالُ للنُّطفةِ: سُلالةٌ، وللوَلَدِ: سَلِيلٌ وسُلالةٌ، وأصلُ (سل): يدُلُّ على مَدِّ الشَّيءِ في رِفقٍ وخَفاءٍ.

مَهِينٍ: أي: ضَعيفٍ مُمتَهَنٍ لا يُعبأُ به، وأصلُ (مهن): يدُلُّ على احتِقارٍ وحَقارةٍ في الشَّيءِ.

وَالْأَفْئِدَةَ: جَمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6).

ذَلِك عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

أي: ذلك الإلهُ العَظيمُ الشَّأنِ، العالي القَدْرِ، الَّذي فَعَل ما وُصِفَ في الآياتِ السَّابقةِ: هو العالِمُ بكُلِّ ما غاب عن خَلْقِه، وهو العالِمُ بكُلِّ ما هو مُشاهَدٌ أو مُدرَكٌ مِن خَلْقِه.

الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

أي: العَظيمُ القَدْرِ، الممتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الغالِبُ القاهِرُ، الشَّديدُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه.

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7).

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ.

أي: الَّذي أتقنَ خَلْقَ كلِّ شَيءٍ، وأحكَمَه وَفْقَ ما يَليقُ به، ويُناسِبُ المقصودَ مِن خَلْقِه.[120]

---

(120) اختلف في معنى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ في هذه الآية على ثلاثة أقوال: الأول: أتقن كلَّ شيءٍ وأحْكَمَه.
الثاني: الذي حسَّن خَلْقَ كلِّ شيء.
وهذان القولان على قراءة من قرأ بفتح اللام.
الثالث: أعْلَمَ كل شيء خَلْقه.
وهذا القول على قراءة من قرأ بتسكين اللام.

كما قال تعالى: صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ [النمل: 88].

وقال سُبحانَه: مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ [الملك: 3].

وقال عزَّ وجلَّ: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى [الأعلى: 2].

وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ.

أي: وخلَق آدمَ أبا البَشَرِ مِن طينٍ.

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8).

أي: ثمَّ جعَلَ اللهُ تعالى ذُرِّيَّةَ آدمَ مُستخلَصةً مِن مَنِيٍّ ضَعيفٍ رَقيقٍ.

ووجَّه ابنُ عطية (٧/ ٦٩) القول الأول بقوله: «فهو حسنٌ من جهة ما هو لمَقاصِدِه التي أريد لها».

ووجَّه ابنُ جرير (١٨/ ٥٩٩ - ٦٠٠) القول الثاني -وهو قول قتادة من طريق سعيد- بقوله: «وأما الذي وجَّه تأويل ذلك إلى أنه بمعنى: الذي أحسن خَلْقَ كلِّ شيء، فإنه جعل الخَلْقَ نصبًا بمعنى التفسير، كأنه قال: الذي أحسن كلَّ شيءٍ خَلْقًا منه. وقد كان بعضهم يقول: هو من المقدَّم الذي معناه التأخير».

ووجَّهه ابنُ كثير (١١/ ٩٢) بقوله: «كأنه جعله من المقدَّم والمؤخَّر».

ووجَّه ابنُ جرير (١٨/ ٥٩٨ - ٥٩٩) القول الثالث بقوله: «كأنهم وجَّهوا تأويل الكلام إلى أنه ألْهَمَ خَلْقَه ما يحتاجون إليه، وأن قوله: ﴿أَحْسَنَ﴾ إنما هو من قول القائل: فلانٌ يُحسِن كذا، إذا كان يَعْلَمُه ... وعلى هذا القول،» الخَلْق «و» الكلّ «منصوبان بوقوع ﴿أحسن﴾ عليهما».

ورجَّح ابنُ جرير (١٨/ ٥٩٩) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق عكرمة، ومجاهد من طريق ابن أبي نجيح، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنه لا معنى لذلك إذ قُرِئَ كذلك إلا أحد وجهين؛ إمّا هذا الذي قلنا من معنى الإحكام والإتقان، أو معنى التَّحسين الذي هو في معنى الجمال والحُسْن؛ فلما كان في خَلْقِه ما لا يُشَكُّ في قُبْحِه وسماجته عُلِمَ أنه لم يَعْنِ به أنه حسَّن كلَّ ما خلَق، ولكن معناه أنه أحكمه وأتقن صنعته».

وانتقد ابنُ عطية القول الثالث قائلًا: «وهذا قولٌ فيه بُعْد».

كما قال تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [المؤمنون: 12 – 14].

وقال سُبحانَه: خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ [الطارق: 6، 7].

ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (9).

ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ.

أي: ثمَّ جعلَه اللهُ خَلْقًا مُستَوِيًا مُستقيمًا مُعتَدِلًا، وجعَلَ فيه الرُّوحَ؛ فصار حَيًّا.

كما قال تعالى: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [ص: 71، 72].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى [القيامة: 37 – 39].

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ.

أي: وأنعَمَ اللهُ عليكم -أيُّها النَّاسُ- بالسَّمعِ؛ لِتَسمَعوا الأصواتَ، وبالأبصارِ لِتُبصِروا المرئيَّاتِ، وبالأفئدةِ لِتُدرِكوا بها المعقولاتِ.

كما قال تعالى: وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [النحل: 78].

قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ.

أي: ثُمَّ أنتم -معَ ما أنعَمَ اللهُ به عليكم- قليلًا ما تَشكُرونَ!

وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10).

وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.

أي: وقال المُشرِكونَ استِبعادًا للبَعثِ: أإذا ذَهَبَت في الأرضِ أجسادُنا، وتفَرَّقَت فيها لحومُنا وعِظامُنا، وغابت في التُّرابِ وصارت مِثلَه، دون أن يتميَّزَ بَعضُه مِن بَعضٍ: أنَعودُ أحياءً مِن بعدِ تلك الحالِ؟!

كما قال الله تعالى: وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا [الإسراء: 49].

بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ.

أي: ليس الأمرُ كما ذَكَروا؛ فهؤلاء المُشرِكونَ لا يَجحَدونَ قُدرةَ اللهِ على كلِّ شيءٍ، ولكِنَّهم يَجحَدونَ لِقاءَ رَبِّهم للحِسابِ والجزاءِ، بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ!

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11).

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ.

أي: قُلْ –يا مُحمَّدُ– لهؤلاءِ المُشرِكِينَ: يَستوفي ملَكُ الموتِ –الَّذي وكَّلَه اللهُ بقَبضِ أرواحِكم– نُفوسَكم، فلا يَترُكُ منها شَيئًا، وعَدَدَكم فلا يُبقي منكم أحدًا.[121]

ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ.

أي: ثُمَّ أنتم بعدَ مَوتِكم تُرَدُّونَ أحياءً يومَ القيامةِ إلى ربِّكم، فيُجازيكم على أعمالِكم.

---

(121) ذكر ابنُ كثير (١١/ ٩٣) في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أن الظاهر من الآية أن ملك الموت شخص معيَّن من الملائكة، وقد سُمِّيَ في بعض الآثار بعزرائيل، ثم قال: «وهو المشهور، قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان».

سُورَةُ السَّجْدَةِ

الآيات (12–14)

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا
إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ
الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ
الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

غَريبُ الكَلِماتِ:

نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ: أي: مُطَأْطِئُوها، وأصلُ (نكس): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ على رأسِه.

حَقَّ: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابقةُ والموافقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه.

عَذَابَ الْخُلْدِ: أي: الدَّائمَ الَّذي لا ينقطِعُ أبدًا، والخُلدُ: البقاءُ والدوامُ كالخُلودِ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والمُلازمةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12).

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

أي: ولو ترى -يا مُحمَّدُ- حينَ يُطأطِئُ المُجرِمونَ رُؤوسَهم يومَ القيامةِ عندَ اللهِ تعالى؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم وعِصيانِهم!

رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ.

أي: يقولونَ: يا ربَّنا أبصَرْنا وسَمِعْنا ما كُنَّا نُنكِرُه أو نَشُكُّ فيه مِنَ الحَقِّ، فارجِعْنا إلى الدُّنيا؛ لِنَعمَلَ فيها عَمَلًا صالِحًا، إنَّا الآنَ مُوقِنونَ بالحَقِّ!

كما قال سُبحانَه: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا [مريم: 38].

وقال تعالى: وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ [الشورى: 44].

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13).

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا.

أي: ولو شِئْنا لهَدَينا كُلَّ إنسانٍ في الدُّنيا إلى الحَقّ، فوفَّقْناه للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ؛ فمَشيئةُ اللهِ تعالى صالحةٌ لذلك.

كما قال تعالى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى [الأنعام: 35].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا [يونس: 99].

وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

أي: ولكِنْ وجبَ القَولُ منِّي، وثَبَت ثُبوتًا لا تغيُّرَ فيه: أنْ أملأَ جهنَّمَ مِن كُفَّارِ الجِنِّ والنَّاسِ، فأُعذِّبَهم فيها جميعًا.

كما قال الله تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [هود: 119].

وقال سُبحانَه: قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ [ص: 84، 85].

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

(14).

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ.

أي: فذُوقوا العذابَ -أيُّها الكافِرونَ- بسَبَبِ نِسيانِكم يومَ القيامةِ وتَكذيبِكم به، وتَرْكِكم العمَلَ استِعدادًا لِلِقاءِ اللهِ تعالى فيه، إنَّا نَترُكُكم في العذابِ.

كما قال تعالى: وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [الجاثية: 34].

وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: وذوقوا عَذابًا تُخلَّدونَ فيه إلى الأبدِ؛ بسَبَبِ ما كُنتُم تَعملونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ والعِصيانِ.

سُورةُ السَّجْدةِ

الآيات (15–17)

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
(15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16)
فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)

غَرِيبُ الكَلِماتِ:

خَرُّوا: الخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِن عُلُوٍّ إلى الأرضِ، وخرَّ: سقَط على وَجهِه، وأصلُ (خرَّ): هو اضْطِرابٌ، وسُقوطٌ مع صوتٍ.

تَتَجَافَى: أي: ترتَفِعُ وتَتنحَّى عن الفِراشِ، وأصلُ (جفو): يدُلُّ على نبوٍّ (أي: ارتفاعِ أو تنحِّي) الشَّيءِ عن الشَّيءِ.

الْمَضَاجِعِ: جمْع مَضْجَعٍ، وهو موضِعُ الضُّجوعِ والنَّومِ، وأصلُ (ضجع): اللُّصوقُ بالأرضِ على جَنْبٍ.

قُرَّةِ أَعْيُنٍ: أي: ما تَلَذُّه وتَشتَهيه، وهي مأخوذةٌ مِن القُرِّ، أي: البَرْدِ، يُقالُ: قَرَّتْ عينُه، أي: بَرَدَت، فقد قيل: دَمعُ الفَرَحِ بارِدٌ، بخِلافِ دَمعِ الحُزنِ، وقيلَ: مأخوذةٌ مِنَ القَرارِ، والمعنى: أعطاهم اللهُ ما تَسكُنُ به أعيُنُهم فلا تطمَحُ إلى غَيرِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15).

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا.

أي: إنَّما يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ الَّذين إذا ذُكِّروا بها بادَروا إلى إظهارِ التَّذلُّلِ والخُضوعِ لله، فهَوَوا إلى الأرضِ ساقِطين على وُجوهِهم سُجَّدًا؛ تَعظيمًا وخُضوعًا لرَبِّهم، وإقرارًا بعُبوديَّتِه سُبحانَه.(122)

كما قال تعالى: قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا [الإسراء: 107 – 109].

وقال سُبحانَه: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا [مريم: 58].

---

(122) نقل ابنُ عطية (٧/ ٧٤) عن ابن عباس أنّ السجود في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إذا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ بمعنى: الركوع، ثم علَّق عليه بقوله: «وقد روي عن ابن جريج، ومجاهد: أنّ هذه الآية نزلت بسبب قوم من المنافقين كانوا إذا أُقِيمت الصلاة خرجوا من المسجد.

فكأن الركوع يقصد من هذا، ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية، وأيضًا فمن مذهب ابن عباس أن القارئ للسجدة يركع، واستدل بقوله: ﴿وخَرَّ راكِعًا وأناب﴾ [ص: ٢٤]».

وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ.

أي: ونزَّهوا اللهَ تعالى في سُجودِهم عن جَميعِ النَّقائِصِ والعُيوبِ، تنزيهًا مُتلبِّسًا بحَمدِه، وإثباتِ صِفاتِ كَمالِه.

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: كان النَّبيُّ - ﷺ - يَقولُ في رُكوعِه وسُجودِه: ((سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبحَمدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي)).[123]

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ.

أي: يَسجُدونَ للهِ، ويُسَبِّحونَ بحَمدِه، والحالُ أنَّهم لا يَستَكبِرونَ.

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16).

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا.

أي: ترتَفِعُ وتَتباعَدُ جُنوبُ هؤلاءِ المؤمِنينَ مُتنَحِّيَةً عن فُرُشِهم، فيَهجُرونَ النَّومَ لِمُناجاةِ اللهِ تعالى في اللَّيلِ؛ خَوفًا مِن غَضَبِه وسَخَطِه وعَذابِه، وطَمَعًا في رِضاهُ ورَحمتِه ومَغفِرتِه وثَوابِه.[124]

---

(123) رواه البخاري (794) واللفظ له، ومسلم (484).

(124) اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضاجِعِ﴾ على خمسة أقوال: الأول: هي الصلاة بين المغرب والعشاء، وأنها نزلت في قوم كانوا يصلون في ذلك الوقت.

الثاني: عنى به صلاة المغرب.

الثالث: عنى به انتظار صلاة العتمة.

كما قال تعالى: وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا [الأنبياء: 90].

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ.

أي: ومِمَّا رزَقَهم ربُّهم يُنفِقونَ في سَبيلِه سُبحانَه.(125)

الرابع: عنى به قيام الليل.

الخامس: أن هذه صفة قوم لا تخلو ألسنتهم من ذكر الله تعالى.

وعلَّق ابنُ عطية (٧/ ٧٦) على القول الأول والثاني بقوله: «وكانت الجاهلية ينامون في أول الغروب، ومن أي وقت شاء الإنسان، فجاء انتظار وقت العشاء الآخرة غريبًا شاقًّا».

وبيَّن ابنُ جرير (١٨/ ٦١٣ بتصرف) أن «الله وصف هؤلاء القوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم، شُغُلًا منهم بدعاء ربهم، وعبادته خوفًا وطمعًا، وذلك نُبُوُّ جنوبهم عن المضاجع ليلًا؛ لأنّ المعروف من وصْفِ الواصف رجلًا بأن جَنبَه نَبا عن مضجعه، إنما هو وصفٌ منه له بأنّه جفا عن النوم في وقت منام الناس المعروف، وذلك الليل دون النهار، وكذلك تصف العرب الرجل إذا وصَفَتْه بذلك ...

فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله -تعالى ذِكْره- لم يَخْصُصْ في وصْفِه هؤلاء القوم بالذي وصفهم به من جفاء جنوبهم عن مضاجعهم من أحوال الليل وأوقاته حالًا ووقتًا دون حالٍ ووقتٍ؛ كان واجبًا أن يكون ذلك على كلِّ آناء الليل وأوقاته، وإذا كان كذلك كانت جميع الأقوال داخلة في ظاهر قوله: ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضاجِعِ﴾؛ لأن جَنبَه قد جفا عن مضجعه في الحال التي قام فيها للصلاة؛ قائمًا صلّى، أو ذَكَر الله، أو قاعدًا بعد أن لا يكون مضطجعًا، وهو على القيام أو القعود قادر».

غير أنه رجَّح القول الرابع مستندًا إلى دلالة الأغلب استعمالًا لغة والسنة، وهو قول الحسن، ومجاهد، وابن زيد، والأوزاعي، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن ذلك أظهر معانيه، والأغلب على ظاهر الكلام، وبه جاء الخبر عن رسول الله - ﷺ -».

وذكر حديث معاذ بن جبل؟، ومجاهد من طريق أبي يحيى.

ووافقه ابنُ عطية (٧/ ٧٦ - ٧٧) مستندًا إلى ذلك مع دلالة العقل، فقال: «وعلى هذا التأويل أكثر الناس، وهو الذي فيه المدح، وفيه حديث عن النبي - ﷺ - يذكر فيه قيام الليل ثم يستشهد بالآية ...

ورجَّح الزجاج هذا القول بأنهم جوزوا بإخفاء، فدل ذلك على أن العمل إخفاءٌ أيضًا، وهو قيام الليل».

(125) اختلف في معنى: ﴿ومِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: أنها الزكاة المفروضة.

الثاني: أنها النوافل والصدقات غير المفروضة.

ورجَّح ابنُ عطية (٧/ ٧٧) القول الثاني قائلًا: «وهذا القول أمدح».

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17).

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ.

أي: فلا يَعلَمُ أيُّ أحَدٍ[126] ما أخفَى اللهُ لأولئكَ المؤمنينَ مِنَ النَّعيمِ العَظيمِ في الجنَّةِ، مِمَّا تَقَرُّ به أعينُهم.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((قال اللهُ: أعدَدْتُ لِعبادي الصَّالحينَ ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ؛ فاقرَؤوا إن شِئتُم: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)).[127]

وعنِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: ((سأل موسى رَبَّه: ما أدنى أهلِ الجنَّةِ مَنزِلةً؟ قال: هو رجُلٌ يجيءُ بعدَ ما أُدخِلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، فيُقالُ له: ادخُلِ الجنَّةَ، فيَقولُ: أيْ رَبِّ، كيف وقد نزَلَ النَّاسُ مَنازِلَهم، وأخَذوا أَخَذاتِهم؟![128] فيُقالُ له: أتَرضَى أن يكونَ لك مِثلُ مُلْكِ مَلِكٍ

(126) قيل: يَدخُلُ في هذا العُمومِ: الملائِكةُ.

وممَّن صرَّح بذلك: الزمخشريُّ، وابنُ تيميَّةَ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/512)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (13/280).

وقيل: المرادُ: أصحابُ النُّفوسِ البَشَريَّةِ.

وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (21/229، 230).

(127) رواه البخاري (3244) واللفظ له، ومسلم (2824).

(128) أخَذوا أَخَذاتِهم: هو ما أخَذوه مِن كرامةِ مَولاهم وحصَّلوه، أو يكون معناه: قصَدوا منازِلَهم.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (3/46).

مِن مُلوكِ الدُّنيا؟ فيَقولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فيقولُ: لك ذلك، ومِثلُه ومِثلُه ومِثلُه ومِثلُه، فقال في الخامِسةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فيقولُ: هذا لك وعَشَرةُ أمثالِه، ولك ما اشتَهَت نَفْسُك، ولَذَّتْ عَينُك! فيقولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قال: رَبِّ، فأعلاهم مَنزِلةً؟ قال: أولئك الَّذين أرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرامَتَهم بيَدِي، وخَتَمتُ عليها، فلَمْ تَرَ عَينٌ، ولم تَسمَعْ أُذُنٌ، ولم يَخطُرْ على قَلبِ بَشَرٍ، قال: ومِصْداقُه في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)).[129]

جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

أي: أعدَّ اللهُ لهم ذلك النَّعيمَ العظيمَ في الجنَّةِ؛ ثَوابًا لهم على أعمالِهم الصَّالحةِ الَّتي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا.

كما قال تعالى: وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الأعراف: 43].

---

(129) رواه مسلم (189).

سُورَةُ السَّجْدَةِ

الآيات (18–22)

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا
أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ
(20) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)

غَريبُ الكَلِماتِ:

الْمَأْوَى: أي: المَثوى والمَسكَنُ، وأصْلُ (أوى) هنا: يدُلُّ على التَّجمُّعِ.

نُزُلًا: أي: ثَوابًا ورِزقًا، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازِلِ مِنَ الزَّادِ، ويُهَيَّأُ للضَّيفِ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18).

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا.

أي: أفمَن كان مُؤمنًا بآياتِ اللهِ متَّبِعًا لرُسُلِه، فهو مُؤمِنٌ بوَعدِه ووَعيدِه، طائعٌ له في أمْرِه ونَهْيِه: أيَكونُ في حُكمِ اللهِ كمَن كان كافِرًا مُكَذِّبًا، خارِجًا عن دائرةِ الإيمانِ وطاعةِ الرَّحمنِ؟![130]

كما قال تعالى: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [ص: 28].

وقال سُبحانَه: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [الجاثية: 21].

---

(130) اختلف في نزول قوله تعالى: ﴿أفَمَن كانَ مُؤْمِنًا كَمَن كانَ فاسِقًا لا يَسْتَوُونَ﴾ على قولين: الأول: أنها نزلت في علي بن أبي طالب؟، والوليد بن عقبة ابن أبي معيط.

الثاني: أنها نزلت في علي بن أبي طالب؟، وعقبة بن أبي معيط.

وبيَّن ابنُ عطية (٧/ ٧٨ – ٧٩) أن القول الأول اعترُض عليه بإطلاق اسم الفِسْق على الوليد، ثم وجَّه ذلك بقوله: «وذلك يحتمل أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيءٍ كان في نفسه، أو لما روي من نقله عن بني المصطلق ما لم يكن حتى نزلت فيه: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

ويحتمل أيضًا أن تطلق الشريعة ذلك عليه لأنه كان على طرفٍ مما ينبغي، وهو الذي شَرِب الخمر في خلافة عثمان؟، وصلّى الصبح بالناس أربعًا ثم التفت، وقال: أتريدون أن أزيدكم؟ ونحو هذا مما يطول ذكره».

وعلَّق على القول الثاني بقوله: «وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية؛ لأن عقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قتل في طريق مكة منصرفَ رسول الله – ﷺ – من بدر».

لَا يَسْتَوُونَ.

أي: لا يَستوي المؤمنونَ والفاسِقونَ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ؛ فلِكُلٍّ جزاءٌ مُختَلِفٌ بحَسَبِ ما قدَّموه.

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19).

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى.

أي: أمَّا الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ بإخلاصٍ للهِ تعالى ومُتابعةٍ لِشَرعِه: فلَهُم في الآخِرةِ جَنَّاتٌ يَأوُونَ إليها، فهم فيها مُقيمونَ، ومنها لا يَخرُجونَ.

قال تعالى: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى [النجم: 13 – 15].

وقال سُبحانَه: وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [النازعات: 40، 41].

نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

أي: ضِيافةً كريمةً مُهَيَّأةً لهم؛ بسَبَبِ ما كانوا يعمَلونَ في الدُّنيا مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى وطاعتِه.

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20).

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ.

أي: وأمَّا الَّذين خرَجوا عن الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، فكَفَروا به وعَصَوه؛ فمَسْكَنُهم ومَقَرُّهم الَّذي يأوُون إليه، ويُقيمونَ في الآخرةِ فيه: هو النَّارُ.

كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا.

أي: كلَّما أرادوا أن يَخرُجوا مِنَ النَّارِ أُعيدوا فيها مُكرَهينَ.

كما قال تعالى: وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [الحج: 21، 22].

وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ.

أي: ويُقال لهم: ذُوقوا عذابَ النَّارِ الَّذي كُنتُم في الدُّنيا تُكذِّبونَ بوُقوعِه.

ثم بيَّن أنَّ عذابَ الآخرةِ له مُقدِّماتٌ في الدنيا؛ لأنَّ الذَّنبَ مُستوجِبٌ لنتائجِه عاجلًا وآجلًا، فقال:

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21).

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ.

أي: ولَنُصِيبَنَّ هؤلاء الفاسِقينَ المكَذِّبينَ مِن العذابِ الَّذي يكونُ قبلَ يومِ القيامةِ، دونَ العذابِ الأكبَرِ في الآخِرةِ.(131)

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

---

(131) اختلف في معنى العذاب الأدنى في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذابِ الأَدْنى﴾ في هذه الآية على خمسة أقوال: الأول: أنه مصائب الدنيا في الأنفس والأموال.

الثاني: أنه الحدود.

الثالث: أنه القتل بالسيف؛ كيوم بدر.

الرابع: أنه سنون أصابتهم.

الخامس: أنه عذاب القبر.

السادس: أنه عذاب الدنيا.

ووجَّه ابنُ عطية (٧/ ٧٩) القول الثالث بقوله: «فيكون –على هذا التأويل– الرّاجعُ غير الذي يذوق، بل الذي يبقى بعده».

ووجَّه القولَ الثاني بقوله: «ويتَّجه –على هذا التأويل– أن يكون في فسقة المؤمنين».

ووجَّه ابنُ القيم (٢/ ٣٢٣) القول الخامس بقوله: «وقد احتج بهذه الآية جماعةٌ –منهم: عبد الله بن عباس– على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن، لكن مِن فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر؛ فإنه سبحانه أخبر أن له فيه عذابين أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدلَّ على أنه بقي لهم مِن الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال: ﴿مِنَ العَذابِ الأَدْنى﴾، ولم يقل: ولنذيقنَّهم العذاب الأدنى.

فتأمَّله».

ورجَّح ابنُ جرير (١٨/ ٦٣٢) مستندًا إلى دلالة العموم شمول معنى الآية لكل عذاب وقع للكفار في الدنيا، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك أن يُقال: إنّ الله وعد هؤلاء الفسقة المكذبين بوعيده في الدنيا العذاب الأدنى، أن يذيقَهموه دون العذاب الأكبر، والعذاب: هو ما كان في الدنيا من بلاءٍ أصابهم؛ إما شدةٌ من مجاعة، أو قَتْلٌ، أو مصائب يصابون بها، فكلُّ ذلك من العذاب الأدنى، ولم يَخْصُصِ الله –تعالى ذِكْرُه– إذ وعدهم ذلك أن يعذِّبهم بنوعٍ من ذلك دون نوعٍ، وقد عذَّبهم بكلِّ ذلك في الدنيا؛ بالقتل، والجوع، والشدائد، والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم».

أي: لَعلَّهم يَتوبونَ إلى اللهِ مِن كُفرِهم وعِصيانِهم.

كما قال تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الروم: 41].

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا.

أي: ولا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه، ثمَّ أعرَضَ عنها مُستكبِرًا عن قَبولِها، مُستنكِفًا عن الانقيادِ إليها.

إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ.

أي: إنَّا سنَنتَقِمُ مِنَ الَّذين أعرَضوا، وكَفَروا، وكَذَّبوا، واكتَسَبوا السَّيِّئاتِ.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

الآيات (23–25)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25)

غَريبُ الكَلِماتِ:

مِرْيَةٍ: أي: شكٍّ، والمِرْيةُ كذلك: التَّردُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِن الشَّكِّ.

أَئِمَّةً: أي: قادةً في الخيرِ، يُقْتَدَى بهم، ويُهتدَى بِهَدْيِهم، وأئِمَّة جمعُ إمامٍ، والإمامُ الَّذي يُؤْتَمُّ به في خيرٍ أو شرٍّ، وأصل (أمم): الأصلُ والمرجِعُ والجماعةُ والدِّينُ.

يُوقِنُونَ: أي: يَعلَمونَ عِلمًا متمكِّنًا في نفوسِهم لا يمكِنُ أن يدخُلَه شكٌّ، وأصلُه مِن: يَقِنَ الماءُ، أي: ثبَت وسكَن، واليقينُ: زوالُ الشَّكِّ، وقيل: هو العِلمُ الَّذي يحصُلُ بعدَ استِدلالٍ ونظرٍ، وقيل: هو سكونُ الفَهمِ مع ثباتِ الحكمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (23).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ.

أي: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ.

فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ.

أي: فلا تَكُنْ -يا محمَّدُ- في شَكٍّ وتردُّدٍ مِن لِقائِه.[132]

---

(132) اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِن لِقائِهِ﴾ على أقوال: الأول: فلا تكن -يا محمد- في شكٍّ من لقاء موسى - عليه السلام - ربَّه تعالى.

الثاني: فلا تكن في شك من لقاء موسى - عليه السلام - ليلة الإسراء.

الثالث: فلا تكن في شك من لقاء الأذى كما لقي موسى - عليه السلام - الأذى.

الرابع: فلا تكن في شكٍّ من تلقّي موسى - عليه السلام - الكتاب.

ووجَّه ابنُ عطية (٧/ ٨١) القول الثالث بقوله: «كأنه قال: ولقد آتينا موسى - عليه السلام - هذا العِبْءَ الذي أنت بسبيله، فلا تَمْتَرِ أنّك تلقى ما لَقِيَ هو من المحنة بالناس، وكأن الآية تسليةٌ لمحمد - ﷺ -».

ونقل عن فرقة: أن الضمير في ﴿لقائه﴾ عائد على الكتاب، ثم وجَّهه بقوله:» أي: أنه لقي موسى - عليه السلام - حين لقيه موسى - عليه السلام -، والمصدر في هذا التأويل يصح أن يكون مضافًا إلى الفاعل، بمعنى: لقي الكتاب موسى، ويصح أن يكون مضافًا إلى المفعول، بمعنى: لقي الكتابَ -بالنصب- موسى - عليه السلام - «.

ثم نقل عن فرقتين قولَيْن آخرَيْن، الأول: أن المعنى: فلا تك في شك من لقائه في الآخرة.

وانتقده قائلًا:» وهذا قولٌ ضعيف «.

والثاني: أن الضمير عائد على ملك الموت الذي تقدم ذِكْره، وقوله: ﴿فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِن لِقائِهِ﴾ اعتراضٌ بيْن الكلامَين، وانتقده قائلًا:» وهذا أيضًا ضعيف".

وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

أي: وجعَلْنا كِتابَ مُوسى مُرشِدًا ودَليلًا لبني إسرائيلَ إلى الحقِّ.

كما قال الله تعالى: وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [البقرة: 53].

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24).

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا.

أي: وجعَلْنا مِن بني إسرائيلَ قادةً في الخيرِ، يَدُلُّونَ النَّاسَ، ويُرشِدونَهم إلى الحقِّ بأمرِ اللهِ تعالى حينَ صَبَروا على طاعتِنا، وصَبَروا عن المعاصي وشَهَواتِ الدُّنيا، وتحمَّلوا مَصائِبَها.

وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ.

أي: وكانوا يُوقِنونَ بآياتِ اللهِ بعِلمٍ ثابتٍ مُستقِرٍّ؛ فهم لا يَشُكُّونَ فيها، ولا فيما دَلَّت عليه مِنَ الحَقِّ.

كما قال الله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا [الحجرات: 15].

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25).

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو وَحْدَه مَنْ يحكُمُ يومَ القيامةِ بينَ جَميعِ خَلْقِه -ومنهم بنو إسرائيلَ- فيما كانوا في الدُّنيا يختَلِفونَ فيه مِن شأنِ الدِّينِ، فيَجزي كلَّ مُحِقٍّ ومُبطِلٍ بما يَستَحِقُّه.

كما قال تعالى: إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [النحل: 124].

سُورةُ السَّجْدةِ

الآيات (26–30)

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)

غَريبُ الكَلِماتِ:

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ: أي: يُبَيِّنْ أو يَتبيَّنْ لهم، وأصلُ (هدي) هنا: التَّقدُّمُ للإرشادِ.

الْقُرُونِ: جمعُ قَرْنٍ، والقَرْنُ: القَومُ المُقتَرِنُونَ في زمنٍ واحدٍ، أو الأمَّةُ مِن النَّاسِ، قيل: مدَّةُ القَرنِ مئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وقيل: غيرُ مُقَدَّرةٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقتِرانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصل (قرن): يدُلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

الْجُرُزِ: أي: اليابِسةِ الَّتي لا نباتَ فيها، وأصلُ (جرز): القَطعُ؛ كأنَّ الأرضَ الجُرُزَ -وهي الَّتي لا نبتَ بها- قُطِع نَباتُها عنها.

الْفَتْحُ: أي: الحُكْمُ، وأصلُ (فتح): يدُلُّ على خِلافِ الإغلاقِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26).

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ.

أي: أوَلَمْ يَتبيَّنْ للمُشركِينَ إهلاكُنا كثيرًا مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ قَبْلَهم، كعادٍ وثمودَ وقَومِ لُوطٍ، وهم يَمشونَ في منازِلِهم فلا يَرَونَ فيها أحدًا منهم، قد أُهلِكوا جميعًا؛ بسَبَبِ ظُلمِهم؟!

كما قال تعالى: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: 45، 46].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ.

أي: إنَّ في ذَهابِ أولئك القَومِ ودَمارِهم وخَلاءِ مَساكِنِهم؛ بسَبَبِ ظُلمِهم وتَكذيبِهم: لَدَلالاتٍ وعِبَرًا وعِظاتٍ لِمُشركي قُرَيشٍ وغَيرِهم، أفلا يَسمَعونَ آياتِ اللهِ وأخبارَ الماضِينَ سَماعَ تدَبُّرٍ واتِّعاظٍ؛ فيَتوبوا ويَترُكوا الشِّركَ؛ كيلا يُصيبَهم مِثلُ ما أصاب مَنْ قَبْلَهم مِنَ الهَلاكِ؟!

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27).

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ.

أي: أوَلَمْ يَرَ المُشرِكونَ المكَذِّبونَ بالبَعثِ أنَّا نَسوقُ بقُدرتِنا الماءَ -كماءِ المطَرِ والسَّيلِ- إلى الأرضِ اليابِسةِ الَّتي لا نَباتَ فيها؟![133]

فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ.

أي: فنُخرِجُ بذلك الماءِ زَرعًا تأكُلُ منه مَواشيهم، وتتغَذَّى به أبدانُهم.

(133) بيَّن ابنُ عطية (٧/ ٨٢ – ٨٣) بأن معنى: ﴿الجُرُز﴾: الأرض العاطشة التي قد أكلت نباتها مِن العطش والقيظ.

ثم انتقد قول من قال: بأنها الأرض التي لا تُنبِت قائلًا: «ومَن عبَّر عنها بأنها الأرض التي لا تُنْبِت فإنها عبارة غير مخلصة».

علَّق ابنُ كثير (١١/ ١٠٧) على قول من قال بأن ﴿الأرض الجرز﴾ هي: أرض مصـــر، بقوله: «وليس المراد من قوله: ﴿إلى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثَّل بها كثير من المفسرين فليست المقصودة وحدها، ولكنَّها مرادةٌ قَطعًا من هذه الآية، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة، تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطرًا لتهدَّمت أبنيتها، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر، وهي أرض سبخة مرملة، محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضًا؛ ليَنبُتَ الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان، المحمود ابتداء».

أَفَلَا يُبْصِرُونَ.

أي: أفلَا يَرَونَ كيفَ أحيا اللهُ الأرضَ بعدَ مَوتِها؛ فيَعلَموا بذلك قُدرةَ اللهِ تعالى على إحياءِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم؟!

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28).

أي: ويَقولُ أولئك المُشرِكونَ: متى يَجيءُ هذا الحُكْمُ الَّذي يَفصِلُ اللهُ به بيْنَنا وبيْنَكم، فيُعَذِّبُنا ويَنصُرُكم علينا إنْ كُنتُم صادِقينَ -أيُّها الرَّسولُ والمؤمِنونَ- في أنَّا مُعاقَبونَ على شِرْكِنا وتَكذيبِنا؟![134]

---

(134) اختلف في معنى: «الفتح» في هذه الآية على قولين: الأول: الحُكْم.

الثاني: عُنِيَ به: فتح مكة.

ورجَّح ابنُ جرير (١٨/ ٦٤٤) مستندًا إلى ظاهر الآيات والدلالة العقلية القول الأول، وهو قول قتادة، ومقاتل، ويحيى بن سلام، وعلَّل ابنُ جرير ذلك، فقال: «يدل على أن ذلك معناه قوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إيمانُهُمْ ولا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، ولا شك أن الكفار قد كان جعل الله لهم التوبة قبل فتح مكة وبعده، ولو كان معنى قوله: ﴿مَتى هَذا الفَتْحُ﴾ على ما قاله من قال: يعني به: فتح مكة؛ لكان لا توبة لمن أسلم من المشركين بعد فتح مكة، ولا شك أن الله قد تاب على بَشَرٍ كثيرٍ من المشركين بعد فتح مكة، ونفعهم بالإيمان به وبرسوله، فمعلومٌ بذلك صحة ما قلنا من التأويل، وفساد ما خالفه».

ورجَّحه ابنُ عطية (٧/ ٨٣)، فقال: «وهو أقوى الأقوال».

ولم يذكر مستندًا.

ورجَّح ابنُ كثير (١١/ ١٠٩) القول الأول، وانتقد القول الثاني مستندًا إلى دلالة التاريخ والنظائر، فقال: «ومَن زعم أنّ المراد من هذا الفتح: فتح مكة؛ فقد أبعد النّجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قَبِل رسول الله - ﷺ - إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريبًا من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قَبِلَ إسلامهم؛ لقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إيمانُهُمْ ولا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، وإنما المراد: الفتح الذي هو القضاء والفصل، كقوله تعالى: ﴿فافْتَحْ بَيْنِي وبَيْنَهُمْ فَتْحًا ونَجِّنِي ومَن مَعِيَ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]، وكقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالحَقِّ وهُوَ الفَتّاحُ العَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]، وقال

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (29).

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يومَ الحُكمِ ومَجيءِ العَذابِ الَّذي تَسألونَ عنه لا تَستفيدون شَيئًا؛ فإنَّه إذا جاء انقَضَى الأمرُ، وحِينَها لا يَنفَعُ الكُفَّارَ إيمانُهم!

كما قال تعالى: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ [غافر: 84، 85].

وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ.

أي: ولا يُمهَلونَ فيُؤخَّرَ عنهم العذابُ؛ ليتُوبوا.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30).

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ.

أي: فأعرِضْ -يا مُحمَّدُ- عن هؤلاءِ المُشرِكينَ الَّذين يَستَعجِلونَك بالعَذابِ.

تعالى: ﴿واسْتَفْتَحُوا وخابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال: ﴿وكانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]».

وانتقد ابنُ عطية القول الثاني مستندًا إلى ظاهر الآيات والدلالة العقلية قائلًا: «وهذا ضعيف، يردُّه الإخبار بأن الكفرة لا ينفعهم الإيمان، فلم يَبْقَ أن يكون الفتح إما حُكْمُ الآخرة، وهو قول مجاهد، وإما فَصْلُ الدنيا كبدر ونحوه».

كما قال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [النجم: 29].

وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ.

أي: وانتَظِرْ حتَّى يُنزِلَ اللهُ عَذابَه بالكافِرين، ويَنصُرَك عليهم؛ إنَّهم مُنتَظِرونَ.[135]

---

(135) قيل: المرادُ: إنَّهم مُنتَظِرونَ ما تَعِدُهم مِنَ العذابِ ومجيءِ السَّاعةِ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/645)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (9/5777).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (18/646).

وقيل: المرادُ: إنَّهم مُنتَظِرونَ بك حوادِثَ الأزمانِ؛ لِيَستريحوا منك، ويَتَرَبَّصون بكم دَوائرَ السَّوءِ.

وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الواحديُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/456)، ((تفسير ابن كثير)) (6/374)، ((تفسير السعدي)) (ص: 657).

وقيل: مُنتَظِرونَ الفُرصةَ لحَربِكم، أو لإخراجِكم.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (21/244).

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الرَّابعُ والعشرونَ

ويَليه المجلَّدُ الخامسُ والعشرونَ، وأوَّلُه: تفسيرُ سورة الأحزابِ

الفهرس

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

المُغني في التَّفسير

المُحرِّرُ الجامِعُ لِتفاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا